الفصل السابع

الوطن العربي في ظل الحكم العثماني

ــ ***ظهور الدولة العثمانية وتوسعها في أوروبا .***

ــ ***التوسع العثماني في الوطن العربي :*** مصر وبلاد الشام ، الحجاز ، اليمن ، العراق ، الخليج العربي ، المغرب العربي .

ــ ***نظم ومؤسسات الحكم العثماني في الوطن العربي :*** النظام الإداري والعسكري ، النظام الاجتماعي ـ الاقتصادي ، مميزات الحكم العثماني للوطن العربي .

ــ ***الزعامات والأسر المحلية في الولايات العربية :*** الشام ، العراق ، علي بك الكبير في مصر ، الجزائر ، تونس ، طرابلس الغرب ، الحركة الوهابية والدولة السعودية في نجد .

ــ ***الغزو الفرنسي لمصر وظهور محمد علي :*** الحملة الفرنسية أسبابها وتطوراتها ، ثورة القاهرة الأولى ، الغزو الفرنسي للشام ، ثورة القاهرة الثانية وجلاء الفرنسيين عن مصر ، نتائج الغزو الفرنسي لمصر ، تولي محمد علي حكم مصر ، إصلاحات محمد علي ، حروب محمد علي وسياسته الخارجية .

الفصل السابع

الوطن العربي في ظل الحكم العثماني

ظهور الدولة العثمانية وتوسعها في أوربا

يعود أصل العثمانيين إلى أحد قبائل الغز التركمانية التي هاجرت من موطنها الأصلي هربا من المغول . وقدمت القبيلة أثناء مسيرها العون للسلطان السلجوقي علاء الدين ، فوهب قائدها أرطغرل منطقة سكود في شمال غربي آسيا الصغرى ، التي تواجه الدولة البيزنطية . ومن هذه المنطقة الصغيرة ، أخذ أرطغرل بالتوسع على حساب الممتلكات المسيحية . وبعد وفاة أرطغرل عام 1299 ، خلفه ابنه عثمان ، الذي استقل بمقاطعته عن السلاجقة ، واعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية . "1"

استطاع عثمان استقطاب الآلاف من المجاهدين من آسيا الصغرى ، وأخذ يوسع إمارته على حساب الأراضي البيزنطية وفي عام

"1" للتفصيل عن أصل العثمانيين وقيام دولتهم ، أنظر :

محمد فؤاد كوبريلي ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان ، القاهرة ، 1993 .

1326 استولى على مدينة بروسه في آسيا الصغرى واتخذها عاصمة لإمارته .

شهدت الإمارة العثمانية في عهد أورخان بن عثمان (1326 ـ 1360) إنجازات واسعة في التوسع والبناء وسك العملة . إلا أن أبرز أعمال أورخان تكوينه للفرق الإنكشارية (الجيش الجديد) . وكانت هذه الفرق قد اعتمدت أساسا على أخذ عدد معين من الأطفال المسيحيين وتدريبهم . كذلك تم إيجاد نظام الفرسان والسباهية ، وتخصيص اقطاعات للصرف عليهم . وقد أتاحت التنظيمات العسكرية الجديدة للعثمانيين فرصا كبيرة للتوسع ، بحيث تمكنوا عام 1357 من الاستيلاء على غاليبولي . وبفتح غاليبولي ، انتقل العثمانيون لأول مرة إلى القارة الأوروبية وكانت فاتحة للتوسع العثماني في البلقان . [1]

استمرت الفتوحات العثمانية في أوروبا في عهد مراد الأول (1360 - 1389) وقاد مراد الجيوش العثمانية باتجاه نهر الدانوب ، فاستولى على أدرنه وفليوبوليس . وواجه مراد تحالفا أوروبيا ضم ملك المجر وبولندا وأمراء البوسنه والصرب وولاشيا ، لكنه تمكن من هزيمة التحالف والاستمرار بالفتوحات . وفشل تحالف أوروبي ثان في إيقاف الزحف العثماني ، وكانت نتيجته ضم بلغاريا للدولة العثمانية .

---

[1] د. محمد كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، القاهرة ، 1976 ، ص. 13 ــ 20 .

وقضى مراد الأول حياته في ميدان القتال ، وأعقبه بـــايزيد الأول (1389 - 1402) الذي اكتسح صربيا وولاشيا . وفي عام 1394 دعـــا البابـــا إلى تنظيم حملة صليبية جديدة لمواجهة الزحف العثمـــاني ، ولبـت معظم الدول الأوروبية الدعوة البابوية . وتمكن بايزيد من إلحاق هزيمـــة حاسمة بالحملة الصليبية الجديدة في نيقوبوليس مما رفع من هيبته في العالم الإسلامي .

وبينما كان بايزيد يحاصر القسطنطينية ويتهيأ لدخولـــها ، ظـــهر خطر آخر هدد الدولة العثمانية من الشرق ، وهو خطر تيمورلنـــك الـــذي تمكن من هزيمة العثمانيين وأسر بايزيد في معركة أنقـــرة عـــام 1402 . وهكذا انهارت الإمبراطورية العثمانية مؤقتا ولمدة قصيرة مـــن الزمـــن ، واكتسح تيمورلنك آسيا الصغرى . [1]

لم يستمر الانهيار العثماني طويلا ، إذ تمكن محمـــد الأول (1413 ــ1421) من استعادة معظم ما فقده العثمانيون واســتكمل مـــراد الثـــاني (1421 ــ 1451) استرداد جميع ما خســـره العثمـــانيون أثنـــاء محنـــة تيمورلنك .

وباستلام السلطان محمد الثاني للحكم (1451 ــ 1481) دخلـــت الدولة العثمانية مرحلة تاريخية جديدة ، إذ توج السلطان العثماني الفتوحات

---

[1] د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في اصول التاريخ العثماني ، بـــيروت ، 1982 ، ص. 48 ــ 59 .

العثمانية بدخول مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية عام 1453 ، وتحويلها إلى عاصمة لدولته بإسم استانبول . وتأتي أهمية هذه الحادثة من أن العثمانيون قد حققوا حلما طالما راود العرب المسلمون منذ العهود الإسلامية المبكرة ، ووجهوا ضربة قاسية لأوروبا بحيث اعتبروها نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث في أوروبا . واستحق محمد الثاني عن جدارة لقب الفاتح . وأعقب بايزيد الثاني (1481 ـ 1512) والده محمد الفاتح في الحكم ثم تنازل عنه في عام 1512 لولده سليم الأول الذي شهد عصره تحولا في مسيرة الفتوحات العثمانية باتجاه الوطن العربي . [1]

** ***التوسع العثماني في الوطن العربي :***

شهد القرن السادس عشر تحولا استراتيجيا في خطط التوسع العثماني ، فبعد ما يقارب القرنين من التوسع غربا باتجاه البلقان وأوروبا ، تحرك العثمانيون نحو الوطن العربي . وقد ذكرت العديد من الآراء والتكهنات حول أسباب التغيير هذا . ويمكننا القول أن العوامل التي سنذكرها أدناه بأكملها أو على الأقل معظمها كانت وراء التوجه العثماني نحو الوطن العربي ، وأهمها :

1 ـ وصل العثمانيون إلى مرحلة التشبع من الفتوحات في أوروبا وتوقفوا أمام أسوار مدينة فيينا ، ولم يعد بإمكانهم التوسع أكثر هناك

[1] محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، 1977 ، ص. 52 ـ 72.

لاصطدامهم بدول قوية فكان الوطن العربي هو البديل المهيأ لتحقيق الهدف العثماني .

2 – ظهور الدولة الصفوية في إيران بمظهر المنافس للدولة العثمانية كدولة إسلامية كبرى ، والاختلاف المذهبي بين الدولتين ، وبروز الأطماع الصفوية في السيطرة على المشرق العربي ، واتهامها بتشجيع الاضطرابات المذهبية في شرقي الأناضول .

3 – قامت الدولة العثمانية على أساس الجهاد ، فكان لا بد لها والحالة هذه من التصدي لخطر البرتغاليين والأسبان وفرسان مالطا الموجهة ضد الأراضي الإسلامية في الخليج العربي والبحر الأحمر والمغرب العربي .

4 – إن سيطرة العثمانيين على الأراضي المقدسة في الحجاز سيكسبها هيبة وسمعة كبيرة في العالم الإسلامي باعتبارها حامية الأماكن المقدسة .

5 – كانت الظروف مهيأة تماما للتوسع العثماني ، إذ خلفت الغارات المغولية الدمار في العراق وإيران . وفي الوقت ذاته تدهورت أوضاع دولة المماليك في مصر والشام بسبب تحول طرق التجارة ، والخلافات الداخلية بين المماليك أنفسهم . أما شمال أفريقيا فكانت تفضل الحكم

العثماني للتخلص من عدوان الأسبان وفرسان القديس يوحنا (فرسان مالطا) . [1]

ابتدأ التوسع العثماني في الشرق بمهاجمة الصفويين . ففي عام 1514 جهز السلطان سليم الأول جيشا كبيرا اتجه به نحو جالديران ، شمال شرقي بحيرة وان ، وجرت هناك معركة كبيرة انتصر فيها العثمانيون نصرا كبيرا ، وهرب الشاه إسماعيل الصفوي من ساحة القتال . وواصل الجيش العثماني زحفه نحو العاصمة الصفوية تبريز ، إلا أنه اضطر للانسحاب منها بعد دخولها . [2] وعلى الرغم من المحاولات الصفوية المتعددة لاستعادة النفوذ السابق وإيقاف الزحف العثماني ، فإن معركة جالديران قد أرست عمليا السيادة العثمانية في المنطقة ، ومهدت للسيطرة على معظم أنحاء الوطن العربي .

** السيطرة العثمانية على مصر وبلاد الشام :

لم تكن العلاقات بين العثمانيين والمماليك في مصر والشام عدائية بادئ الأمر ، بل كان هناك تقارب بسبب الخطر المشترك الذي كان يهدد الدولتين من تيمورلنك . لكن تدخل العثمانيين في شؤون إمارتي قرمان

---

[1] انظر على سبيل المثال :

د. رأفت غنيمي الشيخ ، في تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، 1989 ، ص 21 ـ 25.

[2] د. سيار كوكب الجميل ، تكوين العرب الحديث ، الموصل ، 1991 ، ص. 64 ـ 68 .

وذي القدر التركمانيتين ، اللتان كانتا تحت حماية المماليك ، واستقبال الأمراء المماليك الفارين من مصر ، قد أديا إلى تدهور العلاقات بين الطرفين . وعندما تولى السلطان بايزيد الثاني العرش عام 1481 ، التجأ أخوه جم إلى السلطان المملوكي قايتباي الذي رحب به مما أثار غضب السلطان العثماني. إلا أن الأوضاع شهدت هدوء بين الدولتين منذ عام 1492 لغاية تولي السلطان سليم الأول الحكم عام 1512 .

وبهجوم السلطان سليم الأول على الدولة الصفوية وهزيمتها في معركة جالديران ، أحس المماليك بالخطر الذي أخذ يشكله العثمانيون عليهم . وزاد الأمر سوء مهاجمة العثمانيين لإمارة ذي القدر المملوكية التي كانت تشكل حاجزا بين الدولتين العثمانية والمملوكية [1] . لهذا قرر السلطان المملوكي قانصوه الغوري الزحف إلى الشام ومواجهة الخطر العثماني ، وفي أغسطس 1516 جرت المعركة بين الطرفين في مرج دابق قرب حلب ، ولعبت الخيانة في صفوف المماليك ، وموت السلطان الغوري ، أثرها في التعجيل بهزيمة المماليك . [2]

تمكن العثمانيون من فتح مدن الشام الرئيسة بسرعة . أما في مصر فقد استقر رأي أمراء المماليك على تولية طومان باي ، السلطنة الذي قبلها بعد تردد خوفا من الغدر به . وقد أرسل السلطان سليم رسالة

---

[1] د. ابراهيم علي طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، 1382 – 1517 ، القاهرة ، 1960 ، ص. 162 – 175 .

[2] د. جلال يحي ، مصر الحديثة 1517 – 1805 . الإسكندرية ، ص. 79 – 83 .

تهديـد إلى طومان باي طلب فيها أن يؤدي الجزية السنوية ، وأن يكـون سك النقـود والخطبة باسم السلطان العثماني ، ويصبح طوماي باي نائبا له في مصر . وهـدد في حالة عدم الاستجابة ، باقتحام البلاد وقتـل جميـع المماليك فيها .

زحف الجيش العثماني إلى مصر ، بعد رفض المماليك الاسـتجابة للطلب العثماني والتقى الجيشان في معركة الريدانية عام 1517 . وعلـى الرغم من مقتل الصدر الأعظم العثماني سنان باشـا ، فـإن العثمـانيين كسبوا المعركة ودخلوا القاهرة . بيد أن طومان باي استمر فـي المقاومـة إلى أن القي القبض عليه وأعدم . [1] وهكـذا ألحقـت مصـر بالدولـة العثمانية ، وعاد سليـم الأول الى اسـتانبول محمـلا بالأثـاث والتحـف وخزائن الكتب المصرية ، مصطحبا معه عددا كبيرا من مـهرة الصنـاع والفنانين .

تبقى هناك مسألة أثارت جدلا واسعا منذ احتلال مصـر ، وهـي حقيقة تنازل الخليفة العباسي المتوكل عن الخلافة للسلطان سـليم الأول . فمن المعروف أن السلطان سليم اصطحب الخليفة وأفراد أسرته عند عودته إلـى استانبول ، لكنه غضـب عليه فيما بعـد ونفـاه خـارج العاصمـة العثمانية . وبعد تنصيب سليمان القانوني على العرش العثمـاني ، أعـاد

---

[1] محمد بن أحمد بن اياس الحنفي ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمـد مصطفى ، ط2 ، ج5 (1516 ــ 1522) ، القاهرة ، 1961 ، ص. 70 ــ 156 .

الخليفة إلى استانبول وسمح له فيما بعد بالعودة إلى القاهرة حيث أقام فيها لحين وفاته عام 1538.

أما التنازل عن الخلافة فلم يؤكده أي مصدر معاصر ، على الرغم من أن حوادث الفتح العثماني لمصر كانت تذكر يوما بيوم ، ووجود ثلاثة من المؤرخين في معسكر السلطان سليم . كما لم يشر المؤرخ ابن اياس المعاصر للفتح العثماني إلى هذه القضية ، ولم يذكر السلطان سليم نفسه هذه المسألة عند إبلاغ ابنه سليم بالانتصارات التي حققها في مصر . ولا بد أن قضية بهذه الأهمية لا يمكن أن تهمل هكذا من كل هذه الأطراف . ومن المؤكد أن لقب الخليفة لم يكن يشكل شيئا ذا قيمة لدى السلاطين العثمانيين في أوج قوتهم ، لا سيما بعد أن فقد هذا اللقب هيبته بضعف حامليه ، وكثرة مدعيه . ويذكر أن أول من أشاع فكرة تنازل المتوكل عن الخلافة هو المؤرخ قسطنطين دوسون عام 1787 بدون أن يذكر مصدر خبره ، وانتشرت المسألة عندها دون تمحيص .[1]

** السيادة العثمانية على الحجاز :

كان الحجاز خاضعا اسميا لمصر ، إذ وافق أشراف مكة منذ وقت سابق على الدعاء للسلطان المملوكي في خطبة الجمعة ، وسك العملة باسمه . وتولت البحرية المصرية مهمة حماية جده والأماكن المقدسة من

---

[1] ابراهيم علي طرخان ، المصدر السابق ، ص. 205 ـــ 212 .

الخطر البرتغالي . لذلك كان من الطبيعي أن تعلن الحجاز تبعيتها للعثمانيين حال استيلائهم على مصر .

وفي هذا الصدد ، بعث الشريف بركات الثاني بن محمد ، شريف مكة ، ابنه إلى السلطان سليم الأول في القاهرة لإبلاغه بولائه وتبعيته للعثمانيين . وقد أقرّ السلطان سليم الشريف بركات في منصبه ولم يجر أي تغيير في نظام الشرافة ، باستثناء تأسيس سنجقية عثمانية في جـ - ، وتعيين حاكم عثماني عليها مرتبط بوالي مصر . [1]

** *السيطرة العثمانية على اليمن :*

تميزت الأوضاع في اليمن عشية السيطرة العثمانية على مصر بالتعقيد والارتباك ، إذ استمرت تهديدات الأسطول البرتغالي لليمن والحجاز . ولم تكن المساندة العسكرية التي قدمها مماليك مصر لليمن ذات أهمية تذكر سوى أنها شكلت مبررا لمد النفوذ المملوكي على مناطق واسعة من تلك البلاد . لذلك ما إن سيطر العثمانيون على مصر عام 1517 حتى بادر الأمير المملوكي اسكندر الشركسي في اليمن إلى إرسال مبعوث عنه إلى السلطان سليم حاملا هداياه .

من ناحية أخرى ، شكلت اليمن أهمية استراتيجية للدولة العثمانية ، باعتبار أنها نقطة الدفاع في جنوبي الإمبراطورية ، وأهمية مضيق باب

---

[1] د. عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربي 1516 ــ 1922 ، بيروت ، 1984 ، ص. 97 .

المندب من النواحي العسكرية والاقتصادية . فموقع اليمن كان شديد الأهمية لضمان سلامة الأماكن المقدسة في الحجاز التي كانت تتعرض للتهديدات البرتغالية باحتلالها .

على الرغم من إعلان بعض الحكام في اليمن تبعيتهم للدولة العثمانية ، إلا أن ذلك لم يعن خضوع اليمن . فقد رفض عدد من أمراء المماليك ، الذين كانوا يسيطرون على أجزاء من البلاد ، التبعية للحكم العثماني . لهذا السبب وجد العثمانيون ضرورة إرسال حملة عسكرية تؤمن لهم السيطرة على البلاد . وبذلك بدأ الحكم العثماني الأول لليمن 1538 ـ 1635 . [1]

أبحرت الحملة العسكرية العثمانية بقيادة سليمان باشا من السويس عام 1538 . وكان للحملة هدف مزدوج تمثل في وضع حد للتهديدات البرتغالية للمدن الساحلية العربية والهندية ، وتأمين السيطرة على اليمن وساحل الهند . ودخلت الحملة مدينة عدن في العام نفسه ، وهناك ارتكب سليمان باشا أول عمل غادر له بقتل عامر الطاهري أمير عدن الذي سهل له دخول المدينة .

وبعد فشل سليمان باشا في حربه مع البرتغاليين في الهند ، عاد مرة أخرى إلى اليمن ومد العثمانيون سيطرتهم إلى حضرموت .

---

[1] د. عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، بيروت ، 1980 ، ص. 102 ـ 103 .

واجهت العثمانيين مقاومة شديدة في توسعهم باليمن ، وكان أبـــرز من تزعم حركة المقاومة الأئمة الزيدية . ولم يتمكن العثمانيون من احتلال تعز حتى عام 1546 ، وصنعاء 1548 ومن الجدير بـــالذكر أن الوالـــي العثماني أويس باشا قد لقي مصرعه في اليمن عام 1547 . وظل وضـــع العثمانيين قلقا في اليمن ولم تطل سيطرتهم على صنعـــاء ، ففـــي عـام 1567 تمكن الإمام المطهر من دخول صنعاء . [1]

إن تدهور الأوضاع في اليمن ، وأهمية ذلك البلد للدولة العثمانية ، قد أديا إلى إرسال حملة كبرى جديدة عام 1569 بقيادة سنان باشـــا والـــي مصر . وعلى الرغم من تمكن الحملة من دخول صنعاء مرة أخـــرى ، إلا أن الثـــوار استمروا بمهاجمة العثمانيين مما أجبرهم على طلـــب الصلـــح الذي أقروا فيه بحكم الأئمة بالمناطق الخاضعة لهم بشرط اعترافهم بالسيادة العثمانية . [2]

اندلعت المقاومة مرة أخرى ، واستعـــاد اليمنيـــون العديـــد مـــن المناطق اليمنية مكبدين القوات العثمانية خسائـــر كبـــيرة لا ســـيما فـــي المناطـــق الجبلية الوعرة . وهكذا أصبح الوجود العثماني مكلفا إلـــى حـــد كبير ، الأمر الذي أجبر السلطان مراد الرابـــع (1623 ــ 1640) علـــى التفكير بسحب قواته من اليمن ، وتم ذلك فعلا عام 1635 . [3]

---

[1] د. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون. 1516 ــ 1916، دمشق، 1974، ص72.

[2] محمد يحي الحداد . تاريخ اليمن السياسي ، القاهرة ، 1976 ، ص. 320 ــ 323 .

[3] د. عبد الحميد البطريق . من تاريخ اليمن الحديـــث 1517 ــ 1840 ، القـــاهرة ، 1969 ، ص. 38 ــ 40 .

** الفتح العثماني للعراق :

عقب هزيمة الإيرانيين أمام الجيوش العثمانية في معركة جالديران عام 1514 ، استولى العثمانيون على معظم شمالي العراق ، بما فيه الموصل ، عام 1516 . بيد أن بغداد والبصرة ظلتا تحت الحكم الصفوي . ونتج عن تمرد ذي الفقار ، الذي سبق ذكره ، تدهور الأوضاع في العراق مما مهد الساحة للعثمانيين .

جهز العثمانيون جيشين عام 1534 ، قاد الأول منهما الصدر الأعظم إبراهيم باشا نحو ديار بكر ثم تبريز عاصمة الدولة الصفوية . أما الثاني فقاده السلطان سليمان القانوني نفسه ، حيث التقى بإبراهيم باشا في تبريز ثم توجها نحو بغداد التي كانت مهيأة لقبول السيطرة العثمانية . لذلك لم تواجه القوات العثمانية مقاومة تذكر عند دخولها بغداد ، ومكث السلطان سليمان القانوني عدة أشهر فيها لتنظيم الإدارة في العاصمة العباسية السابقة . [1]

أما البصرة في جنوبي العراق فكانت خاضعة لسلطة الشيخ العربي راشد بن مغامس الذي أعلن ولاءه للصفويين عام 1508 ، ثم بعث ابنه مانعا عام 1538 – 1539 لتقديم خضوعه للسلطان سليمان حيث ثبته السلطان في منصبه . لكن الشيخ سرعان ما أعلن تمرده . فجهز العثمانيون حملة عام 1546 ـ 1547 هاجمت البصرة وأجبرت الشيخ

---

[1] د. سيار الجميل ، المصدر السابق ، ص. 74 ـ 75 .

راشد على الهروب إلى الأحساء ، وضمت البصرة للسيطرة العثمانية المباشرة ، وعين وال عثماني عليها . وهكذا وصلت السيطرة العثمانية إلى سواحل الخليج العربي . [1]

لم تكن السيطرة العثمانية على العراق مستتبة ، فقد تميزت العقود التالية باستمرار الصراع العثماني ـ الصفوي ، وعدم استقرار الحكم العثماني في العراق . فقد تمكن الصفويون من تحريض الأمراء الأكراد في شهرزور ، شمال شرقي العراق ، على التصدي للعثمانيين . وتمكن العثمانيون بصعوبة من الحصول على اعتراف الأمراء الأكراد بتبعية شهرزور للدولة العثمانية . وفي الوقت ذاته استمرت القلاقل والانتفاضات في البصرة ، وأرسل عدد من الحملات ضد العشائر العربية لإجبارها على تقديم الولاء للعثمانيين . [2]

دخل الصراع العثماني ـ الصفوي حول العراق مرحلة خطيرة بإعلان بكر صوباشي العصيان ضد الدولة العثمانية عام 1621 . وكان صوباشي جنديا في الإنكشارية ببغداد وترقى في المناصب حتى أصبح قائدا للشرطة . ونتيجة للخلافات بين بكرصوباشي ووالي بغداد ، بادر صوباشي إلى قتل الوالي ، وأعلن نفسه واليا لبغداد ، وطلب من السلطان العثماني اعترافه بهذه التغييرات . لكن السلطان العثماني رفض ذلك ، وأمر بالقضاء على التمرد ، عندها أعلن بكرصوباشي انفصال العراق عن

---

[1] د. عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربي ، ص. 93 .

[2] د. عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص. 90 ـ 93 .

الدولة العثمانية ، والتبعية للدولة الصفوية . وبعد وصول الجيش الصفوي إلى بغداد ، رفض بكر صوباشي تسليم المدينة ، فاقتحم الصفويون بغداد عام 1623 [1] ليحكموها مرة أخرى خمسة عشر عاما .

لم يقف العثمانيون مكتوفي اليد أمام الاحتلال الصفوي لبغداد ، بل جهزوا عدة حملات لاسترجاع المدينة ، إلا أنها لم تلق النجاح . وفي عام 1638 قاد السلطان مراد الرابع حملة بنفسه لاستعادة بغداد ، وفرض الحصار على المدينة حتى تمكن من دخولها بعد معارك ضارية .[2] وفي عام 1639 عقدت معاهدة زهاب بين الدولتين العثمانية والصفوية أقرت بالسيادة العثمانية على العراق ورسمت الحدود بين الدولتين [3] وبذلك أنهت المعاهدة الادعاءات الصفوية في العراق ورسخت السيطرة العثمانية على البلاد .

** النشاط العثماني في الخليج العربي :

لم تنل الدولة العثمانية حظا كبيرا من النجاح في التوسع في الخليج العربي كما حصل في مناطق أخرى من الوطن العربي . ويرجع ذلك

---

[1] د. عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربي ، ص. 189 .

[2] للتفصيل عن حملة مراد الرابع على بغداد ، أنظر :

د. صالح محمد العابد ، " حملة السلطان مراد الرابع لاستعادة بغداد 1638 " ، " المورد " ، " مجلة " ، مجلد 8 ، العدد 4 ، 1979 ، ص. 79 ـ 93 .

[3] د. فاضل حسين ، مشكلة شط العرب ، القاهرة ، 1975 ، ص. 7 ـ 8 .

بالأساس إلى وجود عدد من الدول المتنافسة في تلك المنطقة وهي البرتغال وإيران والقوى المحلية . وكان لا بد للدولة العثمانية أن تثبت كونها دولة إسلامية قامت على أساس الجهاد ضد النصارى ، وهذا يأتي من مهاجمة البرتغاليين في الخليج العربي وتصفية نفوذهم هناك . كما أن أهمية الخليج العربي التجارية مثل عاملا مهما في دفع العثمانيين نحو المنطقة .

حدث أول اتصال عثماني بالخليج العربي عام 1535 عندما قدم راشد بن مغامس حاكم البصرة ولاءه للسلطان العثماني سليمان القانوني وأرسل شيوخ القطيف والبحرين مبعوثون إلى السلطان العثماني . واستولى العثمانيون على منطقة الحسا شمال شرقي الجزيرة العربية .

ارتبط التوسع العثماني في الخليج العربي إلى حد كبير بالصراع مع البرتغاليين ، الذين نظروا إلى العثمانيين كمنافسين خطرين لا سيما بعد احتلالهم للبصرة ، التي كان البرتغاليون يطمعون في السيطرة على التجارة المؤدية إليها . كما عززت السيطرة العثمانية على القطيف من الوجود العثماني في الخليج العربي .

جاءت فرصة التدخل للبرتغاليين عندما طلب عدد من الزعماء المحليين في القطيف المساعدة . وجهز البرتغاليون في الهند حملة بحرية لغزو القطيف انضمت إليها قوة من جزيرة هرمز وأخرى فارسية . وتمكنت هذه القوات من احتلال القطيف واستمرت باتجاه البصرة ، لكنها انسحبت بسبب وصول أخبار غير صحيحة سربها حاكم البصرة عن قوة العثمانيين في المدينة . وساعد على هزيمة العثمانيين في هذه الفترة في

الخليج العربي عدم وجود قوة بحرية قوية لهم هناك ، واستعانتهم بقوتهم البحرية في البحر الأحمر .

وفي هذا الصدد ، جهزت حملة عثمانية عام 1552 في السويس بقيادة بيري ريس ، انطلقت نحو مسقط وتمكنت من احتلالها وأسر الحامية البرتغالية فيها ، وتوجهت بعدها إلى جزيرة هرمز ، لكنها جوبهت بمقاومة برتغالية شديدة ، الأمر الذي اضطر بيري ريس للانسحاب بحملته نحو جزيرة قشم ومنها إلى البصرة . وكانت نهاية بيري ريس إعدامه بتهمة عدم الكفاءة والفشل في الخليج العربي .

وقد ظهر الضعف البحري العثماني في الخليج بشكل جلي بفشل العثمانيين في إرجاع أسطولهم من البصرة إلى السويس . فأثناء مرور الأسطول في مضيق هرمز هاجمه الأسطول البرتغالي وأجبره على العودة إلى البصرة بعد إصابته بأضرار بليغة. وتقابل الأسطولان مرة أخرى قرب خورفكان على ساحل عمان وكان النصر إلى جانب الأسطول العثماني ، لكن الأسطول البرتغالي أعاد تنظيمه مرة أخرى وتمكن من إيقاع هزيمة شديدة بالأسطول العثماني .

من جهة أخرى ، حاول البرتغاليون احتلال البصرة وجهزوا حملة عام 1556 ، إلا أنها تراجعت قبل وصولها للمدينة بسبب هبوب العواصف . وحاول العثمانيون من جهتهم احتلال البحرين عام 1559 ، لكن حاكم هرمز أرسل أسطولا تمكن من إيقاع الهزيمة بالأسطول العثماني وإجباره على الانسحاب . والتجأ العثمانيون ، بعد فشلهم في تحقيق نصر

عسكري حاسم ، إلى التفاوض مع البرتغاليين حول إعادة العلاقات التجارية عبر الخليج العربي . ومـع ذلك ، تواصل وقوع بعض الحـوادث بيـن الجانبين في أواخر القرن السادس عشر . [1]

** امتداد السيطرة العثمانية إلى المغرب العربي :

إن امتداد الحكم العثماني إلى المغرب العربي جاء حصيلة للغـزو الأسباني ، والجهاد البحري العربي ضد الغزاة . وعنـد الحديث عن الجهاد البحري يقفز إلى الأذهان اسم عروج بربروسا وأخيه خير الديـن . ونظرا لتشابك الأحداث في هذه الفترة ، وصعوبة الفـرز بيـن المراحـل الزمنية للمقاومة المحلية والتدخل العثماني ، فإننا سنتناول المقاومـة وفقـا للتدرج الزمني وصولا إلى فرض السيادة العثمانية .

وبغـض النظر عن الخلافات والآراء التي أثيرت بشـأن أصـل عروج ، والهدف من مجيئه إلى سواحل المغرب العربـي ، فـإن طـابع الجهاد البحري أخذ صبغة عربية إسلامية في البداية ، ثم صبغة إسـلامية متعددة الألوان في المرحلة التالية .

ابتـدأت عمليات عروج من جزيرة جربة التونسية ، حيث اتخـذ مـن تلك الجزيرة قاعدة لعملياته بموافقة السلطان الحفصي ، على أن يدفع

---

[1] للتفصيل عن النشاط العثماني في الخليج العربي ، وعلاقتهم مع البرتغاليين ، أنظر: صالح اوزبران ، الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ، ترجمة د. عبد الجبار ناجي ، بغداد ، 1976 ، ص. 27 ـ 60 .

له جزء معين من الغنائم . وانضم إليه متطوعون من أبناء المغرب العربي وعدد آخر من الأندلسيين الهاربين من بلادهم . وعلى الرغم من فشل عروج في اقتحام مدينة بجاية لتخليصها من الأسبان ، لكنه تمكن من صد هجوم أسباني على مدينة الجزائر عام 1516 ، والتوسع من هناك باتجاه الغرب حيث سيطر على تلمسان . وقد استشهد عروج على يد الأسبان عام 1518 وخلفه أخوه خير الدين في قيادة الجهاد .

وجد خير الدين أن من الضروري الاستمرار بعمليات الجهاد ضد الغزو الأسباني ، وفي الوقت ذاته التصدي للفتن الداخلية التي غذاها الأمراء والحكام من الحفصيين والزيانيين المتهادنين مع الاستعمار الأسباني . وللوقوف بوجه كل هذه الصعوبات كان لا بد لخير الدين أن يبحث عن حليف قوي قادر على حماية البلاد ، وتقديم الدعم لمواصلة الجهاد . وهكذا بعث أعيان الجزائر إلى السلطان سليم الأول عام 1518 أعلموه بانضمامهم تحت لواء الدولة العثمانية بمحض إرادتهم . ورد عليهم السلطان بمنح خير الدين لقب بكلر بك ، أي بك البكوات ، وأرسل أسلحة ومدفعية وألفي جندي من الإنكشارية . وهكذا أصبحت الجزائر جزء من الدولة العثمانية وفقا لطلبها . وظهرت فعالية القوات الجديدة بسرعة ، فقد هزمت قوة أسبانية قرب الجزائر وتحطمت سفنها ووقعت أسلحتها غنيمة بيد المجاهدين .

حقق المجاهدون بقيادة خير الدين نصرا كبيرا آخر على الأسبان باستيلائهم على حصن البنيون ، الواقع في جزيرة أمام مدينة الجزائر ،

الذي كان يتحكم فيها . [1] وتمكن خير الدين من نقل عملياته إلى تونس ، وأسقط حكم الأسرة الحفصية المتعاونة مع الأسبان . لكن السلطان الحسن الحفصي عقد معاهدة مع الأسبان ، وبموجبها شن الأسبان هجوما واستولوا على تونس عام 1535 ونصبوا صنيعتهم الحسن مرة أخرى . لكن حكمه اقتصر على تونس والمناطق المجاورة ، إذ رفضت القيروان والمدن الساحلية الاعتراف به .

وتمكن أحد رؤساء البحر الأتراك المدعو درغوت من الاستيلاء على المهدية وعدد من المدن الساحلية . بيد أن تحالف القوات الأسبانية والإيطالية وفرسان مالطا قد تمكن من احتلال المهدية مرة أخرى . [2]

وفي جبهة مهمة جدا وهي طرابلس ، حقق الوطنيون الذين استنجدوا بالدولة العثمانية نصرا هاما . ففي أغسطس عام 1551 دخل سنان باشا ودرغوت مدينة طرابلس وطردوا منها فرسان مالطا . وفشلت محاولتان فيما بعد لفرسان مالطا باستعادة طرابلس . [3] وهكذا دخلت طرابلس الغرب ضمن الدولة العثمانية وأصبحت قاعدة لتحرير عدد من المدن التونسية التي كانت ما تزال بأيدي القوات الأسبانية .

---

[1] د. جلال يحي ، المغرب العربي الحديث والمعاصر ، ص. 108 – 123 .

[2] عزيز سامح ، الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ترجمة عبد السلام أدهم ، القاهرة ، 1991 ، ص. 38 – 45 .

[3] A.P Vella, The Relations between the Order of Malta and Tripoli , in " Libya in History " , Edited by F F Gadallah, N.D,pp 368 - 373

أخذ درغوت باشا ، حال توليه ولاية طرابلس عام 1555 ، بالتوسع في تونس . ففي العام التالي احتل قفصة وجزيرة جربه ومدن سوسة والمنستير والمهدية ، ثم القيروان فيما بعد . وجرى هذا كله بمساندة السكان المعادين للأسبان وصنيعتهم السلطان الحفصي المتواطئ مع الغزاة . ثم ألحق الأسطول العثماني هزيمة ساحقة بأسطول أوروبي ضم سفنا من أسبانيا والبندقية وحكومة البابا وفلورنسا وفرسان مالطا في جزيرة جربة عام 1560 .

وكان الموقع الأخر للمواجهة هو مدينة تونس ، إذ تمكن جيش عثماني من الجزائر دخول مدينة تونس عام 1569 . بيد أن تحالفا أوروبيا جديدا ظهر إلى الوجود ، واستطاع إلحاق هزيمة مباغتة بالأسطول العثماني . ومع ذلك تمكن العثمانيون من تفتيت التحالف المعادي بالاستيلاء على قبرص التابعة للبندقية ، والإغارة على شواطئ البندقية نفسها ، الأمر الذي أجبرها على الانسحاب من التحالف الأوروبي وبالتالي انهياره .

عادت أسبانيا إلى احتلال مدينة تونس ، لكن العثمانيين سارعوا إلى بناء أسطول جديد لاستعادة المدينة ، وتمكنوا بمساندة المتطوعين العرب من تونس والجزائر وطرابلس الغرب ومصر من استعادة المدينة عام 1574 ، ووقع ملك أسبانيا فيليب الثاني فيما بعد صلحا مع السلطان العثماني مراد الثاني . وبذلك تم تصفية الاستعمار الأسباني من تونس والجزائر وطرابلس الغرب وأصبحت ولايات تابعة للدولة العثمانية . [1]

---

[1] ن.أ. بروشين ، تاريخ ليبيا في العصر الحديث ــ منتصف القرن السادس عشر الى مطلع القرن العشرين ، ترجمة د. عماد حاتم ، طرابلس ، 1991 ، ص. 28 ــ 41 .

نظم ومؤسسات الحكم العثماني في الوطن العربي

حكم العثمانيون الوطن العربي مدة تناهز الأربعة قرون ، شـــهدت خلالها النظم العثمانية نوعا من التطور والتغيير ، لكنها حافظت تقريبا على الجوهر . علاوة على ذلك كان هناك بعض الســـمات المحليـــة للأنظمـــة العثمانية في الولايات المختلفة ، بما فيها الولايات العربية ، ولكننا سنحاول تتبع السمات العامة للأنظمة والمؤسسات العثمانية وتطبيقاتها فـــي الوطـــن العربي .

ـ النظام الإداري والعسكري :

في البداية لا بد من تثبيت حقيقة مهمة ، وهي أن الدولة العثمانيـــة نشأت نشأة عسكرية مما أضفى على مؤسساتها الإدارية التماسك والنظـــام حتى فترة متأخرة . علاوة على ذلك ، قامت الدولة العثمانية على أطـــراف الإمبراطورية البيزنطية وورثت نظم الإدارة العباســـية وتقـــاليد الرعـــاة ، لذلـــك نجـــد أنها اقتبست أنظمتها من الدول السابقة آلتـــي قـــامت علـــى أنقاضها .

مثّل السلطان قمة الهرم السياسي والإداري في الدولة العثمانيـــة ، ولم تحد من سلطاته سوى الشريعة الإسلامية ، بحيث أن قراراتـــه كـــانت تأتي بالمرتبة الرابعة بعد القرآن والسنة والمذاهب الأربعة . وكـــان علـــى السلطان الحصول على فتوى من شيخ الإسلام (المفتي) قبل إتخـــاذ أيـــة خطوة سياسية رئيسية .

أما خلافة العرش فكانت غالبا للابن ، وليس شرطا أن يكون الابن الأكبر . وحدثت في بدايات قيام الدولة نزاعات حول العرش ، إلا أن التقليد الذي أرساه السلطان محمد الفاتح ، رغم بشاعته ، بقتل الاخوة حال استلام العرش قد جنب الدولة هذه الآفة التي مزقت الكثير من الإمبراطوريات . [1]

يلي السلطان من حيث الأهمية شيخ الإسلام أو مفتي الدولة ، المسئول عن علماء الدين والأوقاف والقضاة . أما الشخصية الثالثة فهو الصدر الأعظم ، أي رئيس الوزراء ، يتبعه عدد محدود من الوزراء . وكان الصدر الأعظم نائبا للسلطان في شئون الدولة كافة ، أما الديوان ، الذي شكل من موظفين عسكريين وتنفيذيين عالي المستوى ، فكان يتعامل مع مختلف شؤون الدولة ، وترأس اجتماعاته السلاطين الأوائل . بيد أن محمد الثاني انسحب في أواخر عهده من حضور جلساته ، وترك ذلك للصدر الأعظم . [2]

قسمت الدولة العثمانية إلى ولايات أو أيالات وكان هناك بضع عشرة ولاية عربية يزيد عددها وينخفض حسب الفترة الزمنية . فقد قسمت بلاد الشام إلى ولايات حلب ودمشق وطرابلس ، وأضيفت لها فيما بعد ولايات صيدا وبيروت . وأبقيت مصر ولاية واحدة مقسمة إلى مديريات

---

[1] د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، المصدر السابق ، ص105 – 114 .

[2] Norman Itzkowitz , Ottoman Empire and Islamic tradition. Chicago and London. 1980, p. 54

في حين قسم العراق إلى أربع ولايات هي بغـــداد والموصـــل والبصـــرة وشهرزور . وأقيمت ولاية في جده بالحجـــاز ، أما اليمن فكـــانت أيضـــا ولاية موحدة . وأنشأت ثلاث ولايات في المغرب العربي هـــي الجزائـــر وتونس وطرابلس . وقسمت هذه الولايات إلى وحدات إدارية أصغـــــر ، هي السنجق والقضاء والناحية والقرية .

كان على الوالي العثماني الدفاع عـــن الولايـــة ضـــد الأخطـــار الخارجية ، والمحافظة على الأمن الداخلي . ومن مهامه الأساسية الأخرى تحصيل الضرائب الحكومية ، بمساعدة الدفتردار المسئول عـــن الشـــؤون المالية في الولاية . وعلاوة على الدفتردار ، كان هناك القاضي المســـئول عن فض المنازعات الداخلية [1] ، وقائد الإنكشارية ، ووظائف أخرى .

احتلت المؤسسة العسكرية مكانة بارزة ومتقدمة في الدولة لأنـــها ، وكما سبق ذكره ، قامت على أساس الجهاد والتوسع . وكان العمود الفقري للطبقة العسكرية ، في بداية قيام الدولة ، مجموعة من الفرسان الذين أطلق عليهم السباهيه . وعمد العثمانيون ، من أجل تأمين أعداد محددة وكافية من الفرسان عند الحاجة والتخلص من دفع المرتبات لهم ، إلى منـــح زعمـــاء السباهيـــة مقاطعات من الأراضي مقابل تزويد الدولة بعـــدد معيـــن مـــن الفرســـان . وكان هناك ثلاثة أنواع مـــن الإقطاعـــات ، هـــي : التيمـــار

---

[1] د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، " النظم الإدارية العثمانيـــة فـــي البلـــدان العربية وأثرها في العلاقات العربية ـ العثمانية 1517 ـ 1798 " ، فـــي : العلاقـــات العربية التركية ، تحرير د. عقيل البربار ، طرابلس ، 1988 ، ص. 66 ـ 70 .

والزعامت والخاص . ولم يقتصر منح الإقطاعات على المسلمين ، بل كان هناك عدد لا بأس به من الأرستقراطية المسيحية في البلقان الذين حصلوا على اقطاعات نظير الخدمات التي قدموها للعثمانيين . [1]

احتلت الفرق الإنكشارية أهمية بارزة في الفتوحات العثمانية لأنها أعدت لتكون قوة مشاة مسلحة تسليحا جيدا . وفي عهد السلطان مراد الأول أدخل نظام " الدوشرمة " لتزويد الإنكشارية بالرجال ، حيث فرض على القرى المسيحية تزويد الدولة بعدد معين من الأطفال ، الذين كانوا يتلقون التدريب على حياة الجندية ، ويصبح ارتباطهم بالسلطان ، ويحرم عليهم الزواج . وكان على الإنكشارية في أوقات السلم حراسة الديوان والمواقع المهمة في العاصمة . لكن إلغاء الدوشرمه في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، والسماح لأفراد الإنكشارية بالزواج ، وتمردهم المستمر قد أدى إلى تحول الإنكشارية إلى مصدر ضعف للدولة العثمانية . [2]

اهتم العثمانيون أيضا بالبحرية ، وكان لهم أسطول متقدم في البحر المتوسط أدى دورا في التصدي للغزو الأسباني والبرتغالي . وأنشأ العثمانيون عددا من دور بناء السفن ، كما استعانوا ببحارة وحرفيين إيطاليين ويونانيين في مجال صناعة السفن . وهكذا ضم الأسطول العثماني

[1] Itzkowitz , Op.Cit., pp. 40 - 41.

[2] د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، المصدر السابق ، ص. 43 ـ 45 ، 124 ـ 125.

بين 300 - 400 سفينة مسلحة كبيرة لا تقل عن سفن الدول الأوروبية الكبرى .[1]

على مستوى الولايات أعقب انحطاط الجند الإقطاعي (السباهيه) ازدياد الاعتماد على الإنكشارية . وكان قائد الإنكشارية في العاصمة (أغا الإنكشارية) مسئولا عن تعيين أغا الحامية الإنكشارية في ولايات الدولة ، والتي كانت تتخذ من القلعة مقرا لها).(وكانت الحامية مسئولة عن حراسة أسوار وأبواب المدينة ، والمساهمة في الحملات العسكرية للوالي وبعد إلغاء الدوشرمة وانخراط سكان الولايات في الجيش الإنكشاري للاستفادة من امتيازاته غلب الطابع المحلي على ذلك الجيش . واعتمد الولاة عادة على الجند الخاص أو المرتزقة بسبب الفوضى التي عمت قوات السباهيه والإنكشارية . وفي مصر ، طغت سلطة المماليك ، الذين شكلوا قوة عسكرية هامة على سلطة الولاة العثمانيين أنفسهم .[2]

ـ النظام الاجتماعي ـ الاقتصادي :

تميز المجتمع العربي بأنه كان زراعيا بالدرجة الأولى ، وتبنى العثمانيون النظام الإقطاعي . وقد قسم العثمانيون الأراضي على عدة أنواع : الأميرية ، وكانت ملكيتها للسلطان ، وأراضي الأوقاف (الحبوسات) التابعة للمؤسسات الدينية ، وكانت معفية من الضرائب . أما

---

[1] د. محمد كمال الدسوقي ، المصدر السابق ، ص. 68 ـ 69 .

[2] د. عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص. 48 ـ 52 .

أراضي الخاصة فكانت لكبار الملاكين ، الذين استخدموا فلاحين لزراعتها مقابل حصة معينة . ولم تكن الأراضي المشاعة ملكا لأحد معين ، وإنما استغلت عادة كمراعي من قبل العشائر البدوية . [1]

أصدرت الدولة العثمانية ، في سبيل الحصول على موارد ثابتة ، قانون الالتزام ، وبموجبه منح الملتزم حق جباية الضرائب والرسوم من مقاطعة معينة لصالح الدولة . وتطور هذا النظام في نهاية القرن السابع عشر ، بحيث أصبح حق الالتزام يمنح للملتزم مدى الحياة وأدى هذا القانون إلى خلق طبقة من الملتزمين ، كانت تتفق عادة مع شيوخ العشائر في اقتسام الأموال بين الطرفين بعد تسديد حصة الدولة . وغالبا ما يلجأ الملتزمون إلى فرض أكبر قدر ممكن من الضرائب والرسوم في سبيل الإستحواذ لأنفسهم على حصة الأسد منها . [2]

وعلى صعيد التجارة سيطر الأوروبيون بشكل فعال على التجارة في الدولة العثمانية ، ومما ساعدهم في ذلك الاتفاقيات التجارية التي وقعها العثمانيون مع عدد من الدول الأوروبية المختلفة ، حيث أدى إلى ظهور " نظام الامتيازات " ، الذي مس بشكل واضح السيادة العثمانية داخل الدولة . وحددت تلك الاتفاقيات نسبة الضرائب المدفوعة من الأجانب ، وممارسة عمليات البيع والشراء بحرية داخل الدولة ، وخضوع الأجانب

---

[1] د. بثينة عباس الجنابي ، المصدر السابق ، ص. 105 .

[2] عماد أحمد الجواهري ، تاريخ مشكلة الأراضي في العراق 1914 – 1932 ، بغداد ، 1978 ، ص. 25 – 26

لقوانين دولهم ومحاكمتهم داخل قنصليات بلادهم . وأتاحت تلك القوانين للدول الأجنبية التغلغل اقتصاديا داخل الولايات العثمانية وإقامة مراكز تجارية فيها . [1] وعلى الرغم من السيطرة التجارية الأجنبية ظهر عدد من المدن التجارية التي أدت دورا مهما في التجارة ، لا سيما نقل السلع التجارية بين الشرق وأوروبا ، وترويج المنسوجات القطنية والحريرية المصنعة داخل الدولة العثمانية .

ولا بد من الإشارة إلى جو التسامح الديني الذي اتسمت به الدولة العثمانية ، حيث تمتع أهل الذمة من المسيحيين واليهود بحرية دينية تامة وأقاموا لهم دور عبادة وجمعيات دينية في أنحاء متعددة من الدولة . وكان لأتباع كل ديانة الحق في انتخاب زعيمهم الديني ، واستخدام لغتهم الخاصة ، وإنشاء مدارسهم ، وحرية مزاولة النشاطات الاقتصادية . [2]

مميزات الحكم العثماني للوطن العربي

امتاز الحكم العثماني للوطن العربي بالسطحية والاستعلائية لأنه حكم غير مباشر ، أي أن العثمانيين لم يتغلغلوا في المجتمعات العربية ويتفهموا أوضاعها ومشاكلها . لذلك لم يترك العثمانيون تأثيرا كبيرا في المجتمعات العربية ، على الرغم من أربعة قرون من الحكم . فمن الناحية السياسية ، كان هناك عزلة بين الحكام والمحكومين ، ساعد عليها

---

[1] د. عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربي ، ص. 61 ــ 62 .

[2] د. محمد كمال الدسوقي ، المصدر السابق ، ص. 72 ــ 76 .

اكتفاء العثمانيين بفرض سيادتهم الاسمية على الولايات ، والاكتفاء بمظاهر معينة مثل سك النقود ، وإرسال الجزية السنوية ، والدعاء للسلطان في خطبة الجمعة . وقد أدى ذلك كله إلى إفساح المجال للأسر المحلية بالبروز في واجهة الحكم .

وينطبق الأمر نفسه على الناحية الاجتماعية ، إذ كان لاستعلاء الطبقة الحاكمة على الشعوب المحكومة أثر كبير في عدم حدوث اندماج بين الطرفين . ولم يحاول العثمانيون الاتصال المباشر بالجماهير ، مما يفسر ازدهار نظام الطوائف .

أما على الصعيد الثقافي والتعليمي ، فإن الدولة العثمانية اعتبرت الخدمات التعليمية خارج نطاق مسئولياتها ، وألقته على عاتق الأفراد والمؤسسات والجماعات .

وعلى الرغم من الأضرار التي تركها مثل هذا الإهمال ، فإنه لم يخل من إيجابية كبيرة . فمن المعروف أن العرب احتفظوا بلغتهم وثقافتهم وعاداتهم ، ولم يكن للعادات والثقافة واللغة التركية سوى دور بسيط اقتصر عادة على الدواوين الحكومية . وفي الوقت نفسه استمرت المؤسسات التعليمية العربية مثل الأزهر والزيتونه والقرويين ومسجد دمشق والمسجد الأقصى والحرمين الشريفين في الحجاز ومدارس بغداد في أداء رسالتها العلمية .[1]

---

[1] د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المصدر السابق ، ص. 73 ــ 77 .

ـ الزعامات والأسر المحلية في الولايات العربية :

من الظواهر الملفتة للنظر التي ميزت الحكم العثماني للوطن العربي ظهور أسر وزعامات محلية شبه مستقلة في الولايات العربية لم تترك للدولة العثمانية سوى السيادة الاسمية . ولكون الكثير من الأسر المحلية التي حكمت الوطن العربي ذات أصول أجنبية غير عربية ، فلا يمكننا اعتبار محاولات الاستقلال الذاتي تجارب عربية بحتة . ولكن البيئة التي نشأت فيها تركت ، بلا ريب ، تأثيراتها على تلك المحاولات ووقف الشعب العربي مؤيدا لعدد لا يستهان به من الحكام المحليين . وفي الوقت ذاته ، ظهرت عدد من الزعامات العربية التي التف حولها الشعب العربي في بعض أجزاء الوطن العربي .

ويمكننا القول أن مجموعة من العوامل كانت وراء ظهور الأسر المحلية ، منها الضعف الذي مرت به الدولة العثمانية والهزائم التي توالت عليها في أوروبا ، والطموح الشخصي لبعض القادة العسكريين والقبليين في السلطة ، ورغبة الشعب العربي في الحصول على حرية سياسية أكبر ، واستعداده لتقبل حكام أكثر استقلالية .

وسنتناول هنا أبرز الأسر المحلية والزعامات التي ظهرت في الوطن العربي .

** الأسر المحلية في الشام :

ويأتي في مقدمتها أسرة آل العظم في دمشــق . فعقــب اســتيلاء العثمانيين على الشام ، عهد السلطان سليم الأول بولاية دمشق إلــى جــان بردي الغزالي ، أحــد المماليك الذي غدر بسلطانه الغوري فــي معركــة مرج دابق وانضم للعثمانيين وبعد وصول خبر وفاة السلطان ســليم عــام 1520 ، أعلن الغزالي الثورة ضد العثمانيين محاولا إعادة سيادة الممــاليك على البلاد . وكانت نهاية الغزالي القتل على يد العثمانيــين عــام 1521، واحتلال دمشق مرة أخرى .

التجأت الدولة العثمانية ، بعد القضاء على حركة الغزالــي ، إلــى التشدد في حكم الشام ، فكــان جميع الولاة والقضاة تقريبا الذيــن توالــوا على ولاية دمشق من غير العرب .[1] وظل هذا الوضع حتى القرن الثامن عشر حينما تولت أسرة عربية حكم الولاية .

وبالنظر لأهمية ولاية دمشق للدولة العثمانية ، وكون المدينة تتحكم بطريق الحج القادم من تركيا وشمال سوريا ، وضــرورة تــأمين قوافــل الحجاج بوصف السلطان حامي الأماكن المقدسة ، فإن تعرض الحجاج إلى عمليات السلب من بعض قطاع الطرق البدو كان يؤثر على مركز السلطان الديني . وفــي مثل هذه الأحوال ، كان السلطان يعهد إلى والــي دمشــق بتجريد حملة عسكرية لتأمين قوافل الحجاج . وبعد فــترة الاضطرابــات

---

[1] د. عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص. 83 ــ 105 .

والضعف التي مرت بها دمشق ، وعجز الولاة عن تأمين قوافل الحجاج ، عهد السلطان إلى إسماعيل باشا العظم عام 1724 بولاية دمشق وتأمين قوافل الحجاج ، والقضاء على التمردات الداخلية في الولاية .

حكم آل العظم ولاية دمشق حتى أواخر القرن الثامن عشر ، وتميز حكمهم بإقرار الأمن والنظام في الولاية ، والقضاء على تمردات الإنكشارية واعتداءاتهم على الأهالي ، وتأمين قوافل الحجاج . لذلك فإن العثمانيين كانوا مضطرين لتولية أحدهم ولاية دمشق كلما عجز الوالي التركي عن إعادة الأمور إلى نصابها ، كما أيد العثمانيون آل العظم في صراعهم ضد ظاهر العمر في فلسطين وعلي بك في مصر [1] . وعلى أية حال ، فإن آل العظم حكموا الولاية بأمر من العثمانيين ولم يكن لهم أي طموح للاستقلال أو العصيان ، على عكس بعض الإمارات الأخرى التي ظهرت في بلاد الشام .

من جهة أخرى كانت الأسرة المعينيه (الدرزية الأصل) تحكم أقليم الشوف في لبنان عندما سيطر العثمانيون على بلاد الشام . ووفقا للسياسة العثمانية التقليدية في إبقاء الأسر المحلية الحاكمة في مناطقها إذ أعلنت تبعتها للدولة ، أقر العثمانيون بحكم الأسرة المعينيه . ويعد فخر الدين الكبير (1584 - 1633) من أبرز الأمراء المعينيين ، إذ تمكن من توسيع ممتلكاته بموافقة الولاة العثمانيين في دمشق، وأستولى على كسروان

---

[1] د. رأفت غنيمي الشيخ ، المصدر السابق ، ص. 117 ـ 120 .

وصيدا والبقاع وبيروت . واصطدم فخر الدين مع العثمانيين بعد استيلائه على نابلس وعجلون ، فاضطر للهرب إلى إيطاليا ، حيث مكث هناك خمس سنوات .

بعد عودة فخر الدين إلى لبنان ، لم تكن علاقاته حسنة مع الدولة العثمانية ، وأراد العثمانيون القضاء على طموحاته . وتوجهت ، لهذا الهدف ، حملة برية وبحرية ضده عام 1633 تمكنت من هزيمته وأسره مع عدد من أولاده ، وكان مصيره الموت في العاصمة إستانبول . وأصبحت الإمارة المعينيه بعد موته مقاطعة صغيرة ، إلا أنها استمرت حتى وفاة الأمير أحمد المعيني عام 1697 ، الذي لم يكن له وريث ، فانتقلت الإمارة إلى أسرة جديدة هي الأسرة الشهابية. [1]

حكم الشهابيون جزء من لبنان للفترة بين 1697 ــ 1841 . ويعد الأمير بشير الثاني (الذي حكم للفترة بين 1788 ــ 1840) من أبرز حكام الأسرة الشهابية . وامتاز عهده بالتصادم مع والي عكا القوي أحمد باشا الجزار الذي اتهمه بالتقصير في إرسال المدد لصد حملة نابليون على عكا . وقد هرب الأمير بشير إلى مصر لتفادي غضب الجزار ، ثم اضطر للهرب مرة أخرى بعد اصطدامه بواليي طرابلس ودمشق لطموحاته التوسعية .

---

[1] د. نقولا زيادة ، أبعاد التاريخ اللبناني الحديث ، القاهرة ، 1972 ، ص. 26 ــ 29.

عاد الأمير بشير الشهابي مرة أخرى إلى الشام عـــام 1831 مـــع الحملة المصرية التي احتلت البـــلاد ، وقدم مع أتباعــــه خدمـــات كبـــيرة للحملة المصرية . ومع تغير الظروف الدولية ، وإجبار المصريين علــــى إخلاء الشام ، غادر الأمير بشير لبنان أواخر عـــام 1840 علـــى مركـــب بريطاني إلى مالطا ، منهيا بذلك إمارة الأسرة الشهابية . [1]

وفي فلسطين ، برز الشيخ العربي ظـــاهر العمــــر علـــى صعيـــد الأحداث السياسية بحدود عام 1737 . وكـــان والده يعمل لـــــدى الأمـــير بشير الأول في منطقة صفد . وتمكن ظاهر من التوسع في فلسطين حيـــث ضم طبرية إلى صفد ، وأخضـــع الناصرة ونابلس ثم عكا التـــي اتخذهـــا مقرا لحكمه . واتسم ظاهر العمر بالحزم وتحقيق الأمن ، وكـــــان محبـــا لعمل الخير .

اصطدم ظاهر بالدولة العثمانية ، التـــي نظرت بقلق إلى توســــعه في فلسطين . ومما زاد الأمر سوء تحالف ظاهر العمـــر مـــع المملوكـــي المتمرد في مصر علي بك الكبير ، وتعاون معه في احتلال دمشـــق عـــام 1771 . كما تحالف ظاهر العمر مع الروس وتمكن بمساعدتهم من احتلال صيدا عام 1772 .

قرر العثمانيون القضاء على خطر ظاهر العمر ، وتمكنت إحـــدى حملاتهم من إعادة احتلال صيدا عام 1775 ومحاصرة عكا حيث دبـــرت

---

[1] د. فيليب حتي وآخرون ، تاريخ العرب ، ط8 ، بيروت ، 1990 ، ص. 830 ـــ 832.

مؤامرة لقتل ظاهر العمر داخلها ، وبـذلك تـم القضـاء علـى اسـتقلال إمارته . [1]

ـ حكم المماليك في العراق :

اتسمت الفترة التي أعقبت الفتح العثمـاني للعـراق عـام 1638 بتدهور سريع في الأوضاع الاقتصادية والسياسية والأمنية . وبـدأ الـولاة بالاعتماد على قوات محلية بدلا مـن الإنكشـارية لمواجهـة الحركـات العشائرية ، ولكنها لم تكن كفؤة للقيام بهذا العمل . وسرت روح الفوضـى إلى النظام المالي ، فرفعت قيمة الضريبة واستحدثت ضرائب جديدة. [2]

تعاقب على ولاية بغداد تسعة وثلاثون واليا خلال أربعة وسـتين عامـا (1639 ــ 1703) قتـل بعضهم على أيـدي الجنـد ، وعـزل آخـرون. [3] أما البصـرة فخضعت لحكم أسـرة محليـة هـي أسـرة أفراسياب . وذكرت بعض المصادر أن والي البصرة العثمـاني قـد بـاع منصبه لأفراسياب ، كاتب الجند آنذاك ، عام 1596 لعجـزه عـن دفـع مرتبات الجند بشرط الاستمرار في ذكر اسم السـلطان أثنـاء الخطبـة . وتمكن أفراسياب وابنه من كسب الأهالي ، ومـدا نفوذ الأسرة مسـتفيدين

---

[1] د. فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة د. كمال اليازجي ، ج2 ، بيروت ، 1959 ، ص. 336 ــ 337 .

[2] د. عبد العزيز سليمان نوار ، داود باشا ، القاهرة ، 1968 ، ص. 18 .

[3] د. عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربي ، ص. 191 .

من الصراع العثماني ـ الصفوي . ولم يلجأ العثمانيون من جانبهم إلى القضاء على حكم هذه الأسرة ما دامت تعترف بالسلطة العليا لهم ، وتؤمن حالة الاستقرار في المنطقة ، وتحمي مدخل الخليج العربي من البرتغاليين ، وتضمن سلامة التجارة . لكن هذه الأسرة وضعت نهايتها بنفسها بسبب الصراعات على منصب الولاية ، مما شجع الدولة العثمانية على إنهاء حكمها عام 1667 وإعادة البصرة إلى السيطرة العثمانية المباشرة .

تعرض العراق إلى مجاعة عامي 1689 ـ 1690 مما أدى إلى هجرة الفلاحين من أطراف المدن إلى بغداد ، الأمر الذي ساعد على استفحال الأزمة الاجتماعية ـ الاقتصادية الخانقة . وأعقب المجاعة انتشار مرض الطاعون الذي فتك بأعداد كبيرة من السكان . وساعد على استفحال الأزمة التجاء العثمانيين إلى فرض ضرائب باهضة لمعالجة الأزمة الاقتصادية مما أدى إلى اصطدامهم بالأهالي . وفي الوقت ذاته تزايدت أخطار القبائل البدوية ومقاومتها للعثمانيين ، الذين فشلوا من جانبهم في القضاء على حركاتها المستمرة .[1] لكل هذه الأسباب أصبح العراق بحاجة إلى إدارة قوية تعيد الأمور إلى نصابها وتضمن الأمن في البلاد ، فكان هذا مقدمة لظهور أسرة محلية حاكمة في بغداد .

تولى حكم ولاية بغداد حسن باشا ثم ابنه أحمد باشا للفترة من 1704 - 1747 ، وتمكنا من ضم معظم أنحاء العراق تحت حكمهما ،

---

[1] عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص. 172 ـ 174 ، 216 ـ 217 .

ووطدا الأمن في الداخل . وتم في عهد أحمد باشا رد حملة فارسية قوية بقيادة نادرخان عام 1733 عن بغداد ، وحملة ثانية عن البصرة ، وثالثة عن الموصل .

وبوفاة أحمد باشا عام 1747 ، لم يتمكن العثمانيون من تجاهل مكانة المماليك في بغداد ، فاضطروا لتعيين أحدهم وهو سليمان باشا أبو ليله واليا على بغداد ، ليبدأ بذلك حكم سلالة محلية استمر حتى عام 1831 . ويعود الفضل في وجود المماليك بالعراق إلى الواليين حسن باشا وأحمد باشا ، اللذين اشتريا أعداد كبيرة منهم من تفليس والقوقاز وأدخلوهم في مدارس خاصة ، واعتمدوا عليهم في القوات المسلحة وتسيير شؤون الدولة الإدارية . وترقى قسم منهم في وظائف الدولة العليا ، وارتبط بعضهم برابطة النسب مع الوالي العثماني .

شهد العصر المملوكي في بغداد ازدهار التجارة نتيجة للجهود التي بذلها الولاة المماليك في قمع الحركات القبلية وتأمين الطرق . وظهر النفوذ البريطاني في هذا العهد واضحا ، وتدخل المقيمون البريطانيون في الشئون السياسية الداخلية بشكل سافر بحجة الحفاظ على المصالح الاقتصادية البريطانية . وفي الوقت ذاته ، سويت الخلافات مع إيران بتوقيع معاهدة أرضروم عام 1823 ، أرست الحدود التي أتفق عليها في عهد السلطان مراد الرابع .

وصل حكم المماليك إلى نهايته في عهد داود باشا (1817 – 1831) فعلى الرغم من كون الوالي المذكور أبرز حكام المماليك ، إلا أن

الدولة العثمانية اتجهت في عهد السلطان محمود الثاني إلى تصفية حكم الأسر المحلية في الولايات . وساعد على نجاح الدولة العثمانية في القضاء على حكم المماليك تعرض بغداد إلى فيضان غمر معظمها ، وطاعون انتشر فيها وقضى على عدد كبير من سكانها . وهكذا دخل العثمانيون إلى بغداد عام 1831 وأعادوها إلى حكمهم المباشر . [1]

وبتصفية حكم المماليك في بغداد قضي العثمانيون على حكم أسرة محلية أخرى في ولاية الموصل ، وهي أسرة الجليلي عام 1833 . وكان حكم الأسرة المذكورة قد أبتدأ بعد الغزو العثماني للأراضي الإيرانية عام 1723 . وفي عام 1743 قام الوالي حسين الجليلي بدور بطولي في الدفاع عن الموصل ضد غزو نادرشاه ، وبالتالي إفشال الغزو المذكور . وكان آخر الحكام من آل الجليلي هو يحي باشا ، الذي شهد عهده تنامي الخلافات بين الأسر المتنفذة في الموصل مما أسهم في وضع النهاية لحكم الأسرة الجليلية ، وعودة ولاية الموصل للحكم العثماني المباشر. [2]

- __علي بك الكبير في مصر :__

تميز تاريخ مصر منذ استيلاء العثمانيين عليها عام 1517 باستمرار دور المماليك انسجاما مع السياسة العثمانية التقليدية بالاعتماد على الأسر المحلية والزعامات في ترسيخ النفوذ العثماني بين الأهالي

---

[1] د. عبد العزيز نوار ، داود باشا ، ص. 19 ، والصفحات اللاحقة .

[2] د. سيار الجميل ، المصدر السابق ، ص. 213 ـــ 219 .

وهكذا فإن أول وال عثماني على مصر هو خـــايربك ، أحـــد زعمـــاء المماليك المتعاونين مع السلطات العثمانية . وبعد وفاة خـــايربك ، حـــدث صراع على السلطة بين زعماء المماليك ، وشـــهدت مصـــر فـــترة مـــن الفوضى قبـــل أن يتمكن العثمانيون من إعادة السيطرة على الأوضاع .

لم يستمر الهدوء في مصر فترة طويلة ، إذ شهدت العديد مـــن الحركات التي قام بها الجند للفترة من 1589 ـ 1609 واتسمت هذه الحقبة باستخدام العنف من كلا الطرفين ، أي الجند من جهة والوالي مـــن جهـــة أخرى . وذهب ضحية هذه الحركات عدد كبير بمن فيهم الوالي إبراهيـــم باشا عام 1604 . ولم يكن المماليك بعيدين عن هذه الحركات .

شهدت الفترة التالية استمرار المواجهات بين البكوات الممـــاليك ، حكـــام السناجـــق ، والولاة وبرزت طائفتان مـــن المماليـــك همـــا : الفقارية والقاسمية . وأسهم الولاة العثمانيون في تعميق الانقســـامات بيـــن هاتيـــن الطائفتين ، وضرب إحداهما بالأخرى . وأدى هذا إلى إضعـــاف المماليك ، ولكنـــه لم يقض عليهم نهائيا [1] ، والدليل على ذلك ظهور علي بك الكبير في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . كان علي بك مملوكـا لأحد كبار المماليك المدعو إبراهيم بك ، وتمتع بميزات شـــخصية أهلتـــه للوصول إلى مرتبة بك . والتجـأ علي بك إلى أسلوب شـــراء الممـــاليك لتعزيز نفوذه ، واستمال من جهة أخرى بعض قادة المماليك . واستولى في عام 1763 على منصب شيخ البلد . واســـتغل فرصـــة انـــدلاع الحـــرب

---

[1] عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص. 85 ـ 225 .

العثمانية ــ الروسية لطرد الوالي العثماني من مصر والتوقف عن دفع الضرائب للعثمانيين .

سار علي بك خطوة أبعد في تكريس الانفصال عن الدولة العثمانية وتعزيز نفوذه وسيطرته وإعادة بناء دولة المماليك . وأرسل ، في هذا الصدد ، حملة عسكرية بقيادة محمد بك أبي الذهب استولت على الحجاز وجزء من بلاد الشام . [1] لكن المنافسة بين علي بك وقائده محمد أبي الذهب جعلت القائد يعود من الشام إلى مصر للقضاء على منافسه . وحسم الصراع لصالح أبي الذهب الذي تمكن من أسر علي بك ثم موته متأثرا بجراحه عام 1773 . وعادت مصر مرة أخرى للحكم العثماني ، ولكن تحت نفوذ واسع لأبي الذهب الذي توفي بعد ذلك بعامين [2] واستمر نفوذ المماليك حتى وصول الحملة الفرنسية إلى مصر عام 1798 .

ــ حكم الدايات في الجزائر :

أصبحت الجزائر ، بعد خضوعها للسيطرة العثمانية ، ولاية كحال الولايات الأخرى ، وكان السلطان يبعث ولاته إلى تلك البلاد . وشهدت فترة الولاة بروز الإنكشارية كقوة منافسة لسلطة الولاة ، بحيث أصبح

---

[1] محمود الشرقاوي ، مصر في القرن الثامن عشر ، ط2 ، ج2 ، القاهرة ، 1957 ، ص. 68 ــ 71 .

[2] محمد الحسيني رضا بك ، خلاصة تاريخ مصر الحديث من الحملة الفرنسية الى الوقت الحاضر ، ط4 ، القاهرة ، 1950 ، ص. 8 ــ 9 .

الديوان الذي كان يمثل رؤساء الجند شريكا للوالي في السلطة . وخلق تدخل الجند في الشؤون السياسية اضطرابات وثورات متعددة قامت بها القبائل .

لم تكن الجزائر في عهد الولاة مسايرة تماما للسلطة العثمانية ، فغالبا ما اتخذ الديوان قرارات وسياسات تتناقض مع السياسة العليا للدولة العثمانية . وفي الفترة 1659 ــ 1671 جرد الولاة من صلاحيتهم ومنحت لقادة الجند من الأغوات . وابتداء من عام 1671 وحتى الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830 ، حكم رؤساء البحر (الذين أطلق عليهم الدايات) البلاد . وسار الداي علي بعيدا في الاستقلال عن الدولة العثمانية برفضه دخول الوالي العثماني الجديد إلى الجزائر عام 1711 . وحصوله على لقب الباشا إلى جانب الداي .

اعتمدت الجزائر اقتصاديا قبل عهد الدايات على الموارد التي هيأتها مهاجمة السفن والموانئ الأوروبية . لكن هذا المورد شهد تدنيا كبيرا فيما بعد بسبب قوة البحرية الأوروبية من جهة ، والضعف الذي انتاب البحرية الجزائرية من جهة أخرى . وبذلك تنامت الأزمة الاقتصادية في البلاد .

أما علاقات الجزائر مع جيرانها فاتسمت بالعنف في أحيان كثيرة . ففي عام 1735 دخل الجزائريون مدينة تونس ونصبوا حاكما أدان بالتبعية لهم . وتدخل السلطان العثماني أكثر من مرة لفض النزاعات بين حاكمي تونس والجزائر ، وتم في عهد الدايات تحرير وهران ، وفشل الأسبان في

الحفاظ على ذلك الميناء وباءت محاولاتهم المتكررة لتدمير مدينة الجزائر بالفشل الذريع .[1]

ـ *الأسرة الحسينية في تونس :*

فرض العسكريون في تونس أحد قادتهم حاكما على تونس ، واضطر العثمانيون إلى الموافقة على ذلك منذ عام 1590 . واتخذ الحاكم لقب الداي ، الذي لم يكن يعني رئيس البحر كما هو الحال في الجزائر ، بل أحد قادة القوات البرية . وبعد حكم عدد من الدايات ، برز حكام الأقاليم من البايات في السلطة . ومنذ أواسط القرن السابع عشر تولت الأسرة المرادية الحكم في البلاد حتى عام 1702 ، واحتفظ أول حكام الأسرة مراد باي بلقب باشا . وتميز هذا العهد بكثرة الخلافات الداخلية ، واستعانة بعض الأفراد بالجزائر في سبيل الوصول إلى الحكم .

تمكن أحد ضباط الإنكشارية ، نتيجة لضعف الأسرة المرادية ، وهو حسين علي من الاستيلاء على السلطة وتأسيس أسرة حاكمة جديدة استمرت بالحكم حتى إعلان النظام الجمهوري عام 1957 .

ويعتبر حموده باشا (1782 ــ 1814) من أشهر بايات هذه الأسرة . وقد اعتمد هذا الباي على السكان المحليين في التجنيد بدلا من

---

[1] د. محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني الى الاحتلال الفرنسي ، ط2 ، بيروت ، 1979 ، ص. 54 ــ 146 .

الإنكشارية ، وساعد هذا على إقامة نوع من التوازن داخل البلاد ، فحين ثار الإنكشارية ضده استعان بجنده العرب لإخماد ثورتهم . [1]

ومن البايات الذين أدوا دورا مهما في البلاد أيضا ، الباي أحمد باشا (1837 ـ 1856) الذي أدخل الإصلاحات إلى تونس ، لا سيما في الجانب العسكري ، والباي محمد باشا (1855 ـ 1860) الذي صدر في عهده الدستور . [2] واستمر حكم بايات تونس من الحسينيين بصورة شبه مستقلة عن العثمانيين حتى خضوع البلاد للحماية الفرنسية عام 1881 .

ـ الأسرة القرمانلية في طرابس الغرب :

بعد استيلاء العثمانيين على طرابس ، استمر حكمهم المباشر الأول أكثر من قرن ونصف (1551 ـ1711) وتميزت الفترة الممتدة بين (1551 -1603) باستمرار الصراع مع الأسبان وكانت قوة الأسطول الطرابلسي معروفة في ذلك الوقت ، إذ لم يقتصر دوره على الدفاع على سواحل الولاية ، بل غالبا ما كان يشن غاراته على السواحل الأسبانية والإيطالية . وشهدت الفترة المذكورة أيضا تفاقم نفوذ الإنكشارية إلى حد قتل عدد من الولاة العثمانيين . وانعكس هذا سلبا على معاملتهم للسكان المحليين ونهبهم المنظم للثروات بحجة جمع الضرائب ، الأمر الذي أدى

---

[1] د. جلال يحي ، المغرب العربي الحديث والمعاصر ، ص. 222 ـ 225 .

[2] الطاهر عبد الله ، الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة . 1830 ـ 1956 ، ط2 ، بدون مدينة وتاريخ نشر ، ص. 14 ـ 19 .

إلى اندلاع عدد من الانتفاضات الشعبية التي واجهتها السلطات العثمانية بالقمع . وهكذا كانت الجماهير مستعدة لقبول أية زعامة محلية قوية تنقذهم من أوضاعهم المأساوية .

وقع انقلاب عسكري عام 1603 تزعمه صفر داي قائد الإنكشارية وتولى بموجبه السلطة ، وبدأت بذلك فترة حكم الدايات حتى عام 1711 . ولم يطل استبشار الناس طويلا ، إذ سرعان ما عاد الإنكشارية إلى ممارساتهم السابقة ، الأمر الذي فجر الانتفاضات الشعبية من جديد . وقد تعاقب خلال هذه الفترة خمسة وعشرون دايا على الحكم تولى بعضهم منصب الولاية ، في حين أرسلت الدولة العثمانية ولاة من استانبول خلال حكم الدايات الآخرين ، ولكن لم تكن لديهم سلطات حقيقية .[1]

وبحلول عام 1711 ، وصل إلى الحكم أحمد القرمانلي (1711 ـ 1745) ليؤسس حكما وراثيا لأسرة جديدة في البلاد استمر حتى عام 1835 . ويعود أصل القرمانليين إلى مدينة قرمان بالأناضول حيث هاجر جد الأسرة إلى طرابلس في أوائل السيطرة العثمانية على الولاية . وبمرور الزمن ازدادت الصلات بين الأسرة والعرب الطرابلسيين وربطت الجانبين أواصر المصاهرة ، بحيث أن أفراد الأسرة كانوا يجهلون التحدث باللغة التركية ، ونظر إليهم السكان كعرب أكثر من كونهم أتراكا .

---

[1] للتفصيل عن أوضاع ولاية طرابلس في الفترة 1551 ـ 1711 ، راجع : بروشين ، تاريخ ليبيا في العصر الحديث ، ص. 25 ـ 100 .

اهتم أحمد باشا بتوطيد نفوذه وسلطانه في الولاية ، وبدأ عهده بتدبير مذبحة لضباط الإنكشارية والمناوئين له ، وحصل عام 1722 من استانبول على منصب الوالي ولقب الباشا . واستمرت في عهد أحمد باشا الانتفاضات الداخلية والحركات القبلية التي تصدى لها الوالي بقوة وقمعها ، بل تمكن من توسيع حدود ولايته بضم فزان ذات الأهمية الإقتصادية الكبيرة ، الأمر الذي مكنه من تأمين طرق القوافل التجارية المتجهة إلى أفريقيا .

من جهة أخرى ، اهتم أحمد باشا القرمانلي بالأسطول الذي تحول في عهده إلى قوة مهمة ، وأدى دورا كبيرا في الحفاظ على شواطئ الولاية . وفي الوقت نفسه ، قدم الوالي الدعم للمغامرين البحريين ، الذين كانوا يدفعون بدورهم حصة من غنائمهم لخزينة الولاية . لكن النشاطات البحرية أوقعت الوالي في مشكلات مع عدد من الدول الأوروبية الكبرى .

أما على صعيد العلاقة مع الدولة العثمانية ، فإنه على الرغم من محافظة أحمد القرمانلي على التبعية الإسمية لطرابلس الغرب للدولة العثمانية ، فإنه اتبع سياسة استقلالية إلى حد توقيع معاهدات مع الدول الأوروبية بدون أخذ رأي العثمانيين .

شهدت ولاية طرابلس ازدهارا عمرانيا في عهد أحمد باشا ، إذ اهتم الوالي بترميم الأسوار والقلعة ، وبنى جامعا عرف باسمه حيث دفن فيه بعد موته منتحرا عام 1745 ، وخلفه في الحكم ابنه الأصغر محمد .

ومن المرجح أن أسباب اختيار الابن الأصغر يعود لكون أمه عربية ، على عكس إخوانه الأكبر منه .[1]

اتبع محمد باشا (1745 ــ 1754) في بداية حكمه سياسة والده ، واهتم كثيرا بتقوية الأسطول الذي أصبح مصدر تهديد دائم للأوروبيين . بيد أن استمرار الضغط الأوروبي قد أجبر الوالي على تقديم تنازلات ، دفعت رجال البحر إلى التمرد عام 1752 احتجاجا على القيود المفروضة على نشاطهم البحري ، لكن الوالي تمكن من القضاء على حركتهم بمساندة الأهالي .

حاول علي القرمانلي (1754 - 1793) الالتفاف على الاتفاقيات المعقودة مع الدول الأوروبية بتشجيع العمليات البحرية ضد سفنها ، لكنه أجبر على العودة للالتزام بها . وأدى تقلص موارد البلاد من العمليات البحرية إلى تدني الأوضاع الاقتصادية ، والاتجاه نحو فرض المزيد من الضرائب للتعويض عن نقص الموارد .

تميزت السنوات الأخيرة من حكم علي باشا بتفاقم الصراع بين أبنائه على العرش ، وصل إلى حد قيام ابنه يوسف بقتل أخيه حسن واتجه

[1] شارل فيرو ، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي ، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي ، ط2 ، طرابلس ، 1983 ، ص. 349 ــ 417 .

الصراع بعد ذلك بين يوسف وأخيه أحمد . وكان لكل واحد من الأبناء أنصاره ، فادخلوا بذلك البلاد في دوامة من الاضطراب وعدم الأمان .[1]

استغلت الدولة العثمانية اضطراب الأوضاع فسعت لإعادة سيطرتها المباشرة على الولاية . واستطاع علي الجزائري ، أحد المغامرين البحريين ذو الأصل اليوناني ، إقناع استانبول بتوليته باشوية طرابلس ، فاحتل طرابلس للمدة بين 1793 ـ 1795 . أما علي باشا فهرب إلى تونس ولحقه ابناه أحمد ويوسف بعد فشلهما في المقاومة . ونتيجة للجو الإرهابي الذي خلقه علي الجزائري ، أيد الطرابلسيون الحملة التونسية التي دخلت مدينتهم وأجبرت الجزائري على الهرب .[2]

عين أحمد باشا واليا على طرابلس ، لكنه لم يبق في سلطته سوى ثمانية أشهر لاستيلاء أخيه يوسف على السلطة . وحكم يوسف سبعة وثلاثين عاما (1795 - 1832) ، وشهد عهده اهتماما واضحا بإقرار الأمن والنظام وتشجيع التجارة ، لا سيما تجارة القوافل إلى أفريقيا . كما تميز عهده بتنامي قوة الأسطول ، الأمر الذي درّ موارد هامة للخزانة .

إن أبرز ما تميز به عهد يوسف القرمانلي هو الحرب مع الولايات المتحدة (1801 ـ 1805) . فجهود الوالي في الحصول على

---

[1] روسي ، المصدر السابق ، ص. 346 ـ 366 .

[2] عمر علي بن إسماعيل ، " الظروف التي أدت الى احتلال على الجزائري لمدينة طرابلس الغرب 1793 ـ 1795 " ، في كتاب ليبيا في التاريخ ، إشراف د. فوزي فهمي جاد الله ، د.ت ، ص. 292 ـ 304 .

موارد مساوية لتلك التي حصلت عليها تونس والجزائر من تأمين التجارة الأمريكية في البحر المتوسط ، ورغبة الولايات المتحدة في إظهار قوتها وسيادتها في البحر المتوسط ، قد أوصلت الطرفين إلى حالة عدم التفاهم . والتجأت الولايات المتحدة بدلا من حل القضية بالوسائل السلمية ، إلى استخدام القوة وأرسلت أسطولها إلى مياه الولاية وفرضت حصارا طويلا عليها والتجأت للقصف ولكنها فشلت .

حولت الولايات المتحدة حربها البحرية إلى حرب برية وبحرية . فاستخدم الأمريكيون ، في هذا الصدد ، أحمد باشا شقيق الباشا وكونوا معه حملة مشتركة احتلت درنة بعد معارك شرسة . لكن أحمد باشا وحلفاءه لم يتمكنوا من تطوير عملياتهم تجاه طرابلس ، فاضطر الأمريكيون إلى الدخول في مفاوضات مع يوسف باشا ، وتوصلوا إلى معاهدة جديدة أنهت الحرب عام 1805 . [1]

شهدت السنوات الأخيرة من حكم يوسف باشا تفاقم التدخل الأجنبي في شئون الولاية ، بحيث أصبح لقنصلي بريطانيا وفرنسا نفوذا واسعا يتعدى سلطاتهما بكثير . ونتج عن التدخل الأجنبي ، وتقلص العمليات البحرية ، انهيار الوضع الاقتصادي .

والتجأ الوالي إلى فرض الضرائب الباهظة على السكان للتعويض عن نقص الموارد . وأثارت سياسة الوالي نقمة الأهالي ودفعتهم للثورة ،

[1] بروشين ، تاريخ ليبيا في العصر الحديث ، ص. 151 ـ 231 .

التي لم تقتصر على القبائل بل انشق محمد حفيد يوسف باشا وجمع حوله الأنصار . وقد أجبرت هذه الظروف السيئة يوسف باشا على التنازل إلى ولده علي عام 1832 .

لم ينقذ تنازل يوسف باشا حكم أسرته من مصيرها المحتوم ، بل أجله لثلاث سنوات . ففي عهد علي باشا استمر التدخل الأجنبي والانهيار الاقتصادي والصراعات الداخلية . وهكذا استغلت الدولة العثمانية هذه الحالة فأرسلت عام 1835 حملة بحرية كان هدفها الظاهري مساعدة علي باشا على إعادة الأمن للولاية بيد أن قائد الحملة استخدم الحيلة واعتقل علي باشا وأقاربه ، وأعيدت طرابلس إلى الحكم العثماني المباشر بعد حوالي قرن وربع من حكم الأسرة القرمانلية . [1]

ـ *الحركة الوهابية والدولة السعودية في نجد :*

الوهابية نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب الذي ولد بحدود عام 1703 في العيينه قرب الرياض . وكان والده قاضيا ومدرسا للفقه على مذهب الإمام احمد بن حنبل . ونشأ محمد بن عبد الوهاب في ذلك الجو متأثرا بفقه ابن حنبل وآراء ابن تيمية ، وبلور أفكاره من خلال رحلاته إلى الحجاز وبغداد والبصرة ، حيث طرد من هناك نتيجة مجاهرته بآرائه المعادية للتبرك بالأضرحة والمظاهر التي اعتبرها شركا بالإسلام . [2]

---

[1] عزيز سامح ، المصدر السابق ، ص. 173 ـ 190 .

[2] أحمد عسر ، معجزة فوق الرمال ، ط3 ، بيروت ، 1971 ، ص. 16 ـ 18 .

قامت الدعوة الوهابية على عدة مبادئ : مبدأ التوحيد ، ومحاربة الشفاعة المبتدعة (أي الاستغاثة بالأولياء والصالحين) ، والوقوف ضد تقديس القبور ، والجهاد ضد البدع والخرافات ، وفتح باب الاجتهاد . وواجهت الدعوة الوهابية معارضة شديدة لإتباعها أسلوب الشدة ، وعدم التدرج في محاربة بعض الممارسات التي اعتبرتها نوعا من الشرك . لذلك طرد محمد بن عبد الوهاب من البصرة ، وأجبر على الرحيل من بلدته العيينه ، فاضطر للتوجه إلى الدرعية عام 1743 ، وبذلك بدأت مرحلة جديدة وحاسمة من تاريخ الحركة الوهابية .

أسهمت العديد من العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية في انتشار الحركة الوهابية بنجد والجزيرة العربية . فلم تكن نجد موحدة عند ظهور الوهابية ، بل وجدت العديد من الإمارات الصغيرة المرتبطة بالتوزيع القبلي ، والتي لم تكن متوافقة بينها بل في منازعات وحروب متكررة . وفي السياق نفسه لم تكن نجد خاضعة بشكل مباشر أو غير مباشر للدولة العثمانية . أما أسرة آل سعود المنتسبة إلى قبيلة عنزة ذات الانتشار الواسع في نجد ، والعراق والشام فلم يكن لها شأن كبير في نجد ، بل كانت كغيرها من الأسر المحلية الحاكمة إلى أن تحالفت مع محمد بن عبد الوهاب .

أشر التحالف بين محمد بن عبد الوهاب والأسرة السعودية بزعامة الأمير محمد بن سعود البداية الفعلية لنشر الحركة الوهابية في الجزيرة العربية وأطرافها ، وبالتالي الصدام مع الدولة العثمانية . ففي هذا الصدد ، استخدمت الإمارة السعودية قواتها لنشر مبادئ الحركة بالقوة . ودخلت هذه

القوات الرياض عام 1773 ، ثم القصيم وبريده والإحساء ، لكنها فشلت في الحجاز . وبعد وفاة محمد بن سعود تولى ابنه عبد العزيـــز مـــهام نشـــر الحركة حتى مقتله عام 1803 ، وكان محمد بن عبد الوهاب قد توفي قبلــه عام 1791 . وتولى الحكم بعد عبد العزيز ابنه سعود المعـــروف بســـعود الكبير (1803 ــ 1814) مؤسس الدولة السعودية الأولـــى ، وواصـــل سياسة توسيع النفوذ السعودي في نجد وأطرافها .

سيطر السعوديون عام 1803 على مكة المكرمة ، وبعـــد عـــامين دخلوا المدينة المنورة وهدموا القباب المقامة على قبـــور الصحابـــة .[1] وبذلك أصبح الحرمين الشريفين تحت سيطرة آل سعود ، مما هدد ســـمعة الدولة العثمانية الدينية باعتبارها راعية الأماكن المقدسة ، وكان لا بد لـــها من التدخل الفعال لضرب الحركة الوهابية والنفوذ السعودي . ويعـــود أول تدخل عثماني لضرب الحركة الوهابية إلى عـــام 1798 عندمـــا حـــرض سليمان باشا والي بغداد المملوكي ، ثويني شيخ المنتفـــق علـــى مهاجمـــة الوهابيين ، لكن مقتل ثويني أفشل الحملة . وتزعم الكتخدا (نائب الوالـــي) حملة أخرى لم تكن أكثر حظا من سابقتها .

مد الوهابيين عملياتهم خارج الجزيرة العربية ، حيث شهد العقـــد الأول من القرن التاسع عشر هجمات متعددة على مدينتي كربلاء والنجـــف في العـــراق .[2] وهددوا دمشق ومنعوا قافلة الحج الشامي لثلاث سنوات

---

[1] د. رأفت غنيمي الشيخ ، المصدر السابق ، ص. 185 ــ 211 .

[2] محمد جلال كشك ، السعوديون والحل الإسلامي ، ط4 ، القـــاهرة ، 1984 ، ص. 119 ــ 122 .

من دخول الحجاز . وهكذا ساعد فشل ولاة العراق والشام في قمع الحركة الوهابية على تكليف السلطان العثماني لمحمد علي باشا والي مصر عام 1811 بهذه المهمة ، ونجاحه في القضاء على الدولة السعودية الأولى بدخوله الدرعية عام 1818 وأسر الأمير عبد الله بن سعود ، الذي أعدم في استانبول .

تمكن تركي بن عبد الله من الهرب من الأسر وظهر في واجهة الأحداث عام 1823 ، ودخل الرياض في العام التالي وتوسع من هناك في نجد . واعترف الأمير تركي تجنبا للصدام مع العثمانيين ، بالسيادة الاسمية للدولة العثمانية .

أعقب اغتيال الأمير تركي عام 1834 فترة من الاضطرابات القبلية في الجزيرة العربية . غير أن الأمير فيصل بن تركي تمكن من الوصول إلى السلطة ، لكنه واجه مرة أخرى جيوش محمد علي التي استطاعت دحره ودخول الرياض من جديد عام 1837 . وبعد انسحاب القوات المصرية ، تنافس عدد من الأمراء على عرش الإمارة قبل أن يتمكن فيصل من العودة لحكمه مرة أخرى . وساعدت الاضطرابات الداخلية والصراع على العرش على سقوط الدولة السعودية الثانية ، ولجوء الأمراء إلى الكويت عام 1893 ، إلى أن عادوا في أوائل القرن العشرين ليقيموا الدولة السعودية الحديثة . [1]

---

[1] فاسيليف . فصول من تاريخ العربية السعودية ، د.م ، 1988 ، ص. 132 ـ 202.

مثلت الحركة الوهابية رد فعل على الأوضاع السيئة التي مر بـــها الوطن العربي ، والجزيرة العربية بالخصوص ، ومحاولة لتنقيـــة الديــن الإسلامي من الشوائب التي لحقت به أثناء فترات التدهور ، ومسعى لوضع حد للسيطرة العثمانية . وتركت هذه الحركة تأثيرات واضحة على الوعــي القومي والديني الذي ظهرت طلائعه في النصف الثاني من القرن التاســع عشر . كما أن إمتداداتها إلى حركات إصلاحية دينية أخرى مثل السنوسـية والمهدية لم تكن خافية .

الغزو الفرنسي لمصر وظهور محمد علي

الحملة الفرنسية
أسبابها وتطوراتها

بعد قيام الثورة الفرنسية عام 1789 ، دخلت فرنسا في صراعات وحروب مع الدول الأوروبية الأخرى ، لا سيما بريطانيا التي تزعمت المعسكر المعادي للثورة . لهذا فكر الفرنسيون في ضرب مصالح بريطانيا وتهديد طرق مواصلاتها إلى الهند ، وإذا أمكن غزو الهند نفسها ، فكان هذا أحد الأسباب الرئيسة في التفكير بغزو مصر . علاوة على ذلك ، طمح الفرنسيون اتخاذ مصر قاعدة لإنشاء إمبراطورية استعمارية في الشرق ، والتعويض عن المستعمرات التي فقدوها أثناء حروبهم مع بريطانيا . ولا ننسى كذلك أهمية موقع مصر بالنسبة لقارات العالم ، ووفرة خيراتها . [1]

على أية حال ، أبحرت الحملة بقيادة نابليون بونابرت من ميناء طولون الفرنسي في مايو 1798 وأحاطت تحركاتها بسرية تامة خوفا من الأسطول البريطاني في البحر المتوسط . واستولت القوات الفرنسية ، أثناء طريقها ، على جزيرة مالطا ، ثم نزلت على سواحل الإسكندرية . وأصدر نابليون هناك منشورا للأهالي لتبرير غزوه ، ذكر فيه أنه لم يأت إلى مصر

---

[1] محمد الحسيني رضا بك ، المصدر السابق ، ص. 15 .

بهدف القضاء على دينها أو استعباد شعبها بل في سبيل تخليصها من الظالمين . وزحفت القوات الفرنسية بعد استيلائها على الإسكندرية نحو القاهرة حيث اشتبكت مع قوات المماليك قرب إمبابه . وكانت نتيجة المعركة هزيمة ساحقة للماليك الذين أبدو شجاعة كبيرة في المعركة ، لكن تفوق الأسلحة الفرنسية وخاصة المدفعية قد حسم المعركة . وبذلك دخل الفرنسيون القاهرة .

أصيب الفرنسيون ، قبل أن يتمكنوا من الاحتفال بنصرهم ، بكارثة مريعة أثرت بشكل حاسم على خططهم المستقبلية فقد ظهر الأسطول البريطاني ، الذي كان يتابع تحركات الأسطول الفرنسي ، في خليج أبي قير ، وتمكن من حصر الأسطول الفرنسي في الخليج وتوجيه ضربة مدمرة له ، وقتل قائده ومعظم ضباطه . وكان لهذه المعركة البحرية نتائج بالغة الخطورة على الفرنسيين ، إذ قطعت الصلة بينهم وبين فرنسا وأنهت محاولاتهم ضرب المصالح البريطانية في الهند ، وتوجت السيطرة البحرية البريطانية في البحر المتوسط .[1] لكن أخطر نتائج هذه المعركة تمثل في اعتماد قادة الحملة الفرنسية على مصر في التموين ، مما أثار الشعب العربي ضدهم نتيجة للضرائب الباهظة التي فرضوها ، كما أزالت المعركة الهالة التي أحاطوا أنفسهم بها وأنهم ليسوا بالقوة التي لا يمكن هزيمتها ، فكان هذا أيضا عاملا مهما من عوامل اندلاع المقاومة الشعبية ضدهم .

---

[1] د. جلال يحي ، مصر الحديثة ، ص. 368 ـ 371 .

– ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر 1798) .

بذل نابليون جهودا كبيرة للتقرب إلى الشعب العربي في مصر وكسب تأييده . وفي هذا الإطار كان نابليون يحضر بنفسه الحفلات العامة والمناسبات الدينية مثل حفلة ولاء النيل واحتفالات المولد النبوي الشريف وشهر رمضان والأعياد الأخرى . وخطا القائد الفرنسي بعيدا فتظاهر باعتناق الإسلام ، وارتدى الزي المصري وكان يتناول الطعام مع العلماء والأعيان على موائدهم وهو جالس في الأرض . لكن هذه الممارسات لم تمنع حالة الانفجار الشعبي في البلاد ، إذ أسهمت مجموعة من العوامل في دفع الشعب العربي إلى الثورة ضد الفرنسيين ، من أبرزها :

1 – التشدد في جمع الضرائب للإنفاق على الحملة الفرنسية .

2 – الاستيلاء على أموال الأوقاف بعد أن كانت بأيدي علماء الدين .

3 – هدم الكثير من المباني الأثرية والمساجد بحجة التنظيم .

4 – سوء سلوك الجنود الفرنسيين مع الأهالي وإهانة عادات وتقاليد الأهالي وميل الجنود للفجور .

5 – إعدام كل من يشك اتصاله بالمماليك مثل حاكم الإسكندرية .

6 – تحريض علماء الدين للأهالي على الثورة .

7 – شجع تحطم الأسطول الفرنسي في أبي قير ، المصريين على رفع لواء الثورة .

انطلقت الثورة من الجامع الأزهر ، وبدأت بتجمهر كبير أمـام دار القاضي للاحتجاج على الضرائب ، ثم سار المتظاهرون نحو مقر نـابليون وهاجموا حاكم القاهرة العسكري وقتلوه . وقد تصدى الفرنسـيون للثـورة بعنف ، فأطلقوا النار على المتظاهرين وأمر نابليون باسـتخدام المدفعيـة لإخماد الثورة ، فانهالت آلاف القنابل علـى الجـامع الأزهـر والأحيـاء المجاورة له . وكتـب أحـد شهود العيان من الفرنسيين عن القصف قائلا " أوشك الجامع الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب فيدفن تحـت أنقاضـه الجماهير الحاشدة فيه ، وأصبح الحي المجاور للأزهر صورة من الخـواب والتدمير ، فلم يكن يرى فيه إلا بيوت مدمرة ، ودور محترقة ، ومات تحت الأنقاض آلاف من السكان الآمنين كان يسمع لهم أنين موجع ، وصيحـات مرعبة ، وكانت الجهات القريبة من الأزهر ... مسـرحا لـهذه المشـاهد الفظيعة "[1] .

ارتكب الفرنسيون ، بالإضافة إلى ما ذكر ، أعمالا بشعة بعد إخماد الثورة بالقوة . ومن أعمالهم إهانة المساجد ، لا سيما الأزهـر ، وهدمـوا العديد من المنازل لتأمين التحركات السريعة للجنود الفرنسيين في حـالات الطوارئ ، ونفذوا حكم الإعدام في عدد كبير من العرب . بحجة المشاركة في الثورة والتحريض عليها .

خلفت الثورة نتائج مهمة على الغزو الفرنسـي لمصـر ، إذ فقـد الفرنسيون ما لا يقل عن مئتي قتيل ، بينما بلغت ضحايا المصريين بحـدود

---

[1] نقلا عن : محمد الحسيني رضا بك ، المصدر السابق ، ص. 28 ـــ 30 .

أربعة آلاف . وألغى نابليـون اجتماعات الديوان الذي شكله سـابقا فـي القاهرة . وأشعرت الثورة الفرنسيين بعدم الأمان ، حيث لم يعد يظهر أحـد منهم في الشوارع بدون سلاح ، بعد أن كانوا يشعرون بالاطمئنـان فـي السابق . وشجعت الثورة المماليك على رص صفوفهم والاستعداد لمهاجمـة الفرنسيين ، وحثت الدولة العثمانية على التفكير جديا في استعادة مصر مرة أخرى .

ـ *الغزو الفرنسي للشام :*

علم نابليون بالاستعدادات التي اتخذتها الدولة العثمانيـة لاسـتعادة مصر بتأييد ومساندة بريطانيا ، لذلك اختار مواجهة العثمانيين خارج مصر واتخاذ موقفا هجوميا بدلا من حصر نفسه في موقف دفاعي داخل مصـر . وادعى نابليون أن هدفه من الحملة ملاحقة المماليك الفارين إلى الشام .

تمكن نابليون من احتلال العريش في فبراير 1799 ، وخان يونس وغزة ويافا لكنه فشل فشلا ذريعا في عكا التي حاصرها لمـدة شـهرين . وتعود أسباب فشل نابليون إلى استبسال والي عكا أحمد باشا الجزار فـي الدفاع عن مدينته ، ومساندة الأسطول البريطاني بقيادة سدني سميث لـه ، وحصانة أسوار المدينة ، وانتشار مرض الطاعون فـي أوسـاط القـوات الفرنسية ، واستيلاء الأسطول البريطاني على مركب فرنسي حمل معـدات الحصار ، وتجدد أعمال المقاومة في مصر ووصول أخبـار عـن حملـة عثمانية جديدة لاستعادة مصر . لكن هذه الحملة هزمت على يد نابليون في موقعة أبي قير البرية في يوليو 1799 . وغادر نابليون في الشهر التـالي

سرا إلى فرنسا بعد أن علم بتحالف الدول الأوروبية على بلاده ، وترك الجنرال كليبر محله .[1]

- ثورة القاهرة الثانية وجلاء الفرنسيين عن مصر .

وصل الجنرال كليبر إلى قناعة مفادها أنه لا فائدة من استمرار الوجود الفرنسي في مصر . وقرر لذلك اللجوء للتفاوض مع العثمانيين لتأمين جلاء قواته ، لا سيما أن نابليون نفسه قد بدأ مساعيه في هذا الصدد وأمر وكيله باستئناف العملية . وفهم العثمانيون من الرسالة التي بعثها كليبر للصدر الأعظم أنها تغطية لضعف الموقف الفرنسي ، لهذا رفضوا التفاوض وأرسلوا حملة بحرية كان مصيرها الهزيمة في شمال دمياط .

ودخل الطرفان بعدها في مفاوضات أسفرت عن توقيع معاهدة العريش في يناير 1800 ، واتفق بموجبها على انسحاب الفرنسيين بأسلحتهم وأمتعتهم على متن سفن فرنسية وعثمانية خلال ثلاثة أشهر ، والمحافظة على سلامة الجنود والأهالي خلال الانسحاب ، واحتلال العثمانيين للمواقع التي تخليها القوات الفرنسية . بيد أن العثمانيين ، بعد أن تسلموا بعض المواقع التي أخلاها الفرنسيون ، نقضوا المعاهدة بضغط من البريطانيين وأصروا على تسليم الفرنسيين لأنفسهم كأسرى حرب .

---

[1] د. مكي شبيكه ، تاريخ شعوب وادي النيل (مصر والسودان) في القرن التاسع عشر الميلادي ، ط2 ، بيروت ، 1980 ، ص. 29 ـ 118 .

ورفض الفرنسيون ذلك ، ودخلوا في معركة مع العثمانيين قرب عين شمس انتهت بهزيمة العثمانيين وانسحابهم خارج الحدود المصرية . [1]

دخلت بعض القوات العثمانية أثناء معركة عين شمس إلى القاهرة ، وانضم إليهم الأهالي في ثورة عارمة ضد الغزاة . لكن الفرنسيين تمكنوا من بث الفرقة داخل صفوف الثورة حيث حيدوا المماليك ، ووقعوا اتفاقا بجلاء المماليك والعثمانيين عن القاهرة ، وأصدروا عفوا عاما عن الأهالي . بيد أن الفرنسيين لم يحترموا الاتفاق ، إذ فرضوا غرامات كبيرة على الأهالي . وانتهت ثورة القاهرة الثانية بخسائر فادحة للأهالي ، بعد أن لجأ الغزاة كعادتهم إلى استخدام المدفعية في قصف الأحياء المدنية .

رفض كليبر عرض العثمانيين بإعادة تنفيذ معاهدة العريش . وفي يونيو 1800 تجسد التلاحم القومي العربي بقيام سليمان الحلبي باغتيال كليبر ، وحكم على سليمان وأربعة آخرون بالإعدام . وخلف كليبر الجنرال مينو الذي شهد عهده حملة عثمانية ــ بريطانية مشتركة تمكنت من إجبار الفرنسيين على الانسحاب داخل الإسكندرية في الشمال ، والتراجع من بلبيس إلى القاهرة . وأعيدت المباحثات مرة أخرى ، حيث انسحب الفرنسيون من القاهرة في أوائل أغسطس ، والإسكندرية في أوائل سبتمبر 1801 . وطويت بذلك صفحة الغزو الفرنسي لمصر . [2]

---

[1] د. جلال يحي ، مصر الحديثة ، ص. 449 ــ 463 .

[2] د. مكي شبيكه ، المصدر السابق ، ص. 126 ــ 159 .

ـ نتائج الغزو الفرنسي لمصر :

على الرغم من فشل الغزو الفرنسي لمصر عسكريا بانسحاب قوات الاحتلال ، وقصر الفترة الزمنية للوجود الفرنسي ، إلا أنه خلف نتائج بالغة الأهمية على مصر بشكل خاص ، والدولة العثمانية وولاياتها العربية بشكل عام الأمر الذي دفع الكثير من المؤرخين إلى اعتباره بداية العصر الحديث في مصر وسنستعرض هنا أبرز الآثار والنتائج التي خلفها الغزو الفرنسي لمصر :

1 ـ النتائج السياسية :

أبرز الغزو الفرنسي الأهمية الإستراتيجية لموقع مصر ، وفتح عهدا من التنافس الفرنسي ـ البريطاني للسيطرة عليها ، انتهى بالاحتلال البر طاني لها عام 1882 . من جهة أخرى ، عملت سلطات الاحتلال الفرنسي على خلق مؤسسات سياسية مثل الديوان الذي ضم العلماء والأعيان والتجار بهدف ايجاد غطاء لاحتلالها . ومع ذلك ، مثل الديوان بداية التمثيل الشعبي وظهر أثره سريعا بعد الانسحاب الفرنسي . كما أدى الغزو إلى تعميق الشعور الوطني والقومي في مصر ، ظهر جليا أثناء التصدي لقوات الغزو وفي ثورتي القاهرة الأولى والثانية .

2 ـ *النتائج العسكرية :*

دفع الصدام مع القوات الفرنسية المتقدمة العثمانيين وولاة مصر إلى إدراك ضعف قوتهم ، فقاموا بالإصلاحات في الجيش والقضاء على مظاهر التخلف مثل القوات الإنكشارية .

3 ـ *النتائج الاجتماعية :*

شهدت فترة الغزو الفرنسي تدهور مكانة بعض الفئات الاجتماعية العليا في مصر مثل المماليك ، وأخذ دور علماء الدين والمشايخ والتجار يبرز على حساب الفئات القديمة .

4 ـ *النتائج الاقتصادية :*

وجه الفرنسيون ضربة شديدة إلى طبقة المماليك الإقطاعية ، لكنهم لم يقضوا على أساس النظام الإقطاعي ، بل مهدوا الطريق أمام الطبقة الوسطى .

ووضع الفرنسيون مشروعات للإصلاح الاقتصادي بتوحيد الضرائب المتعددة المفروضة على الفلاح بضريبة واحدة . وحاول نابليون أيضا تنشيط التجارة الخارجية .

5 ـ النتائج العلمية :

وهي من أبرز النتائج التي خلفها الغزو الفرنسي . وتمثلت الجهود العلمية للحملة بإنشاء المجمع العلمي في القاهرة ، ومختبر للأحياء ، ومكتبة للعلوم الطبيعية والتاريخ الطبيعي ، ومعمل للكيمياء ، ومرصد فلكي . وقام بهذه الجهود العلماء الذين رافقوا نابليون في حملته . واكتشف الفرنسيون حجر رشيد الذي حل رموز الكتابة المصرية القديمة .

من جهة أخرى ، درس الفرنسيون إمكانية شق قناة تربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر ، لكنهم توصلوا إلى قرار خاطئ بأن مياه البحر الأحمر ترتفع عن مياه البحر المتوسط بتسعة أمتار ، ومع ذلك فإنها مهدت لحفر القناة فيما بعد . ووضع الفرنسيون أساسا للطباعة الحديثة في مصر بإنشاء مطبعة . وأخيرا قام العلماء الفرنسيون المرافقون للحملة بمسح شامل لمصر ووضعوا نتائج دراستهم في كتاب أطلق عليه " وصف مصر " . [1]

وهكذا على الرغم من مساوئ الغزو الفرنسي لمصر فإنه خلف بعض النتائج الإيجابية التي ظهرت بشكل واضح في عهد محمد علي .

---

[1] لمزيد من التفصيل عن نتائج الغزو الفرنسي لمصر ، أنظر :

د. جلال يحي ، مصر الحديثة ، ص. 520 ـ 546 ، د. عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ مصر الحديث والمعاصر 1517 ـ 1919 ، الإسكندرية ، 1993 ، ص. 201 ـ 212 .

- تولي محمد علي حكم مصر :

بعد خروج الفرنسيين من مصر ، تنازعت ثلاث قوى على السلطة : العثمانيون والبريطانيون والمماليك . وكان هدف العثمانيين تثبيت سلطتهم على البلاد ، لذلك أوعزوا للوالي بالتخلص من المماليك . أما البريطانيون فسيطروا على عدد من المدن الهامة مثل الإسكندرية ورشيد ودمنهور والجيزه وخططوا للبقاء هناك عن طريق التعاون مع المماليك . ورأى المماليك أنفسهم سادة البلاد الشرعيين ، وأن العثمانيين وغيرهم من القوى غرباء عن مصر . وكانت هناك قوة رابعة هي الشعب المصري الممثل ببعض الزعماء مثل السادات والمهدي والشرقاوي وعمر مكرم وغيرهم . وقد تميزت الفترة الممتدة بين 1801 و1805 بالاضطرابات نتيجة للصراع بين الوالي العثماني خسرو باشا والمماليك بزعامة عثمان البرديسي ومحمد الألفي . وهنا بدأ يبرز دور محمد علي في الأحداث .

ولد محمد علي ، الألباني الأصل ، في بلدة قوله الواقعة على بحر ايجه عام 1769 . وأصبح تحت كفالة حاكم البلدة بعد وفاة أبيه وعمه وتزوج من إحدى قريبات الحاكم . وعمل محمد علي في تجارة الدخان ، ثم اشترك في الحملة العثمانية التي أرسلت إلى مصر لإخراج الفرنسيين منها وأظهر فيها من المقدرة ما جعله ينال رتبة قائد .

وبعد تمرد الجند على خسرو باشا أصبح محمد علي قائدا للجيش وتقرب إلى العلماء والأهالي ونال ثقتهم ، كما تعاون مع عثمان البرديسي

علـــى إدارة البلاد [1] ، وضرب محمد الألفي وأجبره على الــــهرب إلـــى الشام . ولم تبق هناك من قوة تنافس محمد علي سوى عثمان البرديســـي ، الذي ألب عليه الشعب بسبب الضرائب الباهظة التـــي فرضـــها ، وبذلـــك تهيأت الفرصة لمحمد علي لمهاجمته وإجبــــاره علـــــى الفـــرار مـــن القاهـــرة . [2]

رفض الزعماء المصريون تعيين والي عثماني جديد في البـــــلاد ، واستدعى علماء وأعيان مصر بزعامة عمر مكرم محمد علي وعرضــــوا عليه الولاية بشرط مشاورتهم في شئون البلاد . ووافق محمد علي ، بعـــد تردد ، واضطرت استانبول لتعيينه وصدر فرمان بذلك في يوليـــو 1805 . وثبت محمد علي حكمه عام 1807 بعد إفشاله محاولـــة غـــزو بريطانيـــة بزعامة فريزر ، حيث تمكن من ضم الإسكندرية لحكمـــه بعـــد أن كـــانت خارج نطاق سيطرته . وفي عام 1811 دبر محمد علي كمينـــا للممـــاليك باستدراجهم إلى القلعة ، وقام بمذبحة كبيرة لهم هناك ، وتخلص بذلك مـــن نفوذهم .

ـ إصلاحات محمد علي .

في البداية ، لا بد لنا من التنبيه إلى حقيقة مهمة وهي أن أهـــداف محمد علي من الإصلاحات التي قام بها في كافة المجالات تتمثل في بنـــاء

---

[1] محمد الحسيني رضا بك ، المصدر السابق ، ص. 45 ــ 50 .

[2] محمود الشرقاوي ، المصدر السابق ، ص. 108 ــ 109 .

قاعدة متينة تتيح له تحقيق طموحاته في تثبيت حكمه في مصر أولا ، والانطلاق منها لبناء دولة كبرى في المنطقة . ولكن بغض النظر عن هذا فإن إصلاحات محمد علي شكلت بداية حقيقية لبناء مصر الحديثة ، وحافزا للدولة العثمانية لإعادة النظر في نظمها ومؤسساتها . وسنستعرض هنا أبرز الإصلاحات في عهد محمد علي .

1 ـ في المجال الاقتصادي :

بدأ محمد علي إصلاحاته في هذا القطاع بإلغاء نظام الالتزام وجعل الدولة المالك الوحيد للأراضي ، بما فيها أراضي الوقف . وحقق بهذه الخطوة ضرب أبرز قوتين في البلاد ، الملتزمين من المماليك وعلماء الدين المشرفين على أراضي الوقف . ووزع محمد علي الأراضي على الفلاحين مقابل زراعتها بمحاصيل معينة ، احتكرت الدولة شراءها والمتاجرة فيها وأصبحت الضريبة المفروضة على الأرض أكثر نظامية من السابق . واهتم محمد علي أيضا بإصلاح نظام الري وإقامة مشاريع ري كبرى .

سعى محمد علي في المجال الصناعي إلى إنشاء بعض المصانع ، ومنع استيراد السلع الأجنبية التي لها بديل في مصر ، واستخدام المواد الأولية المحلية في صناعات النسيج والكتان والحرير . [1]

---

[1] د. عفاف لطفي السيد مرسوط ، " مصر من ولاية عثمانية الى دولة ذات حكم ذاتي " ، في كتاب : العلاقات العربية التركية ، تحرير د. عقيل البربار ، طرابلس ، 1988 ، ص. 110 ـ 116 .

2 ـ في المجال الإداري :

حلت فئة إدارية جديدة بدلا من المماليك الذين كونوا الفئة الحاكمة القديمة . واستلزمت عمليات الإصلاح إيجاد موظفين إداريين جدد للعمل في مجال إدارة الأراضي والمالية والتعليم والجيش .

وصدر عام 1837 القانون الأساسي لتنظيم شؤون الحكومة ، وتم بموجبه إيجاد سبعة دواوين للداخلية والمالية والحربية والبحرية والتعليم والتجارة والصناعة .

وقد شغل أقارب محمد علي والمقربين إليه من الأتراك المناصب الإدارية العليا في البلاد . ومنحت الوظائف الصغيرة للمصريين بعد عام 1833 بسبب استشراء الفساد في مؤسسات الدولة ، وجهل الأتراك لطبيعة البلاد . [1]

3 ـ في مجال التعليم :

كانت حاجة محمد علي إلى إعداد كوادر عسكرية وإدارية وراء اهتمامه بالتعليم ، لا سيما التعليم المهني . ولهذا افتتح العديد من المدارس العليا مثل مدرسة الطب واللغات (الألسن) التي ترأسها رفاعة الطهطاوي ، أحد المطلعين على الثقافة الفرنسية . وكان الطلبة يدرسون

---

[1] د. عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، ص. 259 ـ 264 .

على نفقة الحكومة ، كما أرسلت عدة بعثات منهم إلى أوروبا . وأقام محمد علي أول مطبعة حكومية في بولاق .[1]

4 ـ في مجال الجيش :

أوكل محمد علي إلى الكولونيل سيف[2] ، مهمة تنظيم وتدريب الجيش . وبدأ سيف عمله بإنشاء مدرسة حربية بأسوان . واعتمد سيف على السودانيين في تزويد الجيش المصري بالرجال ، ولكن كثرة الوفيات بينهم بسبب عدم ملاءمة الجو لهم جعلته يعتمد على الفلاحين المصريين . واهتم محمد علي أيضا بإقامة مصانع للأسلحة والذخيرة وبناء الأسطول ، عن طريق شراء بعض السفن من إيطاليا وفرنسا وتصنيع سفن أخرى في ترسانة أقامها بالإسكندرية بإشراف مهندسين فرنسيين .[3]

ـ حروب محمد علي وسياسته الخارجية .

بعد أن ثبت محمد علي حكمه في مصر وتمكن من بناء قاعدة اقتصادية جيدة في البلاد وفرت له موارد مالية هامة ، وبنى جيشا قويا

[1] د. عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص. 396 .

[2] هو ضابط سابق في جيش نابليون ، استعان به محمد علي وأطلق عليه سليمان باشا الفرنساوي بعد إسلامه .

[3] محمد الحسيني رضا بك ، المصدر السابق ، ص. 68 ـ 70 .

قياسا للمنطقة ، اتجه نحو تحقيق أحلامه ببناء إمبراطوريـــة كـبرى فـي المنطقة على غرار الإمبراطورية العثمانية ، أو ربما على أنقاضها . ودخل محمد علي في سلسلة من الحروب ، كان بعضـــها بتكليـف مـن الدولـة العثمانيـة ، والبعض الآخر بموافقتها قبل أن يدخل فـــي صـدام مباشـر ضدها . ومن أبرز تلك الحروب :

1 ـ الحملة ضد الوهابيين 1811 :

جاءت هذه الحملة بتكليف من الدولة العثمانية بعد احتلال الوهابيين لمكة والمدينة . ومرت الحملة بمرحلتين : استولت القوات المصرية بقيادة طوسون ابن محمد علي في المرحلة الأولى على ميناء ينبع ومكة والمدينـة في الفترة بين 1811 ـ 1813 ، وأعيدت الأسرة الهاشـمية إلـى حكـم الحجاز . وانتهت المرحلة الأولى بتوقيع هدنة بين الطرفيـن عـام 1815 ضمنت الوضع الراهن ، حيث احتفظ الوهابيون بموجبها بنجـد وبعـض أجزاء الحجاز ، وسيطر المصريون على الأماكن المقدسة .

استؤنفت الحرب مرة أخرى عام 1816 بعد وفاة طوسون ، وقـاد إبراهيم باشا ابن محمد علي القوات المصرية المتقدمة في نجـد واسـتولى على الدرعية عاصمة السعوديين عام 1818 . وبذلك كون محمد علي قـوة له على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، وتوسع من هناك باتجاه الاحسـاء على الخليج العربي . لكن الدفاع عن هذه الأماكن أصبح صعبا ، ففـي

عام 1834 أجبر المصريون على إخلاء نجد ، ولكنهم استمروا بفرض حمايتهم على الحجاز وساحل اليمن حتى عام 1840 .[1]

2 ـ الحملة على السودان 1820 ـ 1821 :

انطلقت حملة السودان بموافقة الدولة العثمانية ، لأسباب عديدة . ويأتي في مقدمة تلك الأسباب ، رغبة محمد علي في ملاحقة بقايا المماليك الفارين من مصر ومنعهم من التحالف مع سلطان سنار أو البريطانيين . وطمع محمد علي أيضا في موارد السودان الاقتصادية ، حيث سمع عن وجود الذهب هناك . وأراد الحاكم المصري أيضا استخدام السودانيين في جيشه . ومما ساعد على إرسال الحملة ، الضعف الشديد الذي وصلت إليه مملكة الفونج في سنار ، وحث بعض الزعماء السودانيين لمحمد علي على فتح بلادهم .

قاد الحملة الأولى إسماعيل ابن محمد علي وهدفها سنار ، والحملة الثانية بقيادة إبراهيم باشا نحو منطقة النيل الأبيض ، والثالثة بقيادة محمد الدفتردار صهر محمد علي باتجاه غربي السودان من كردفان إلى دارفور . وحققت هذه الحملة أهدافها وأصبح إسماعيل باشا أول حاكم للسودان عام 1822 ، حيث لقي مصرعه في العام ذاته أثر ثورة ضده . ومن أبرز الولاة الذين حكموا السودان علي خورشيد الذي اهتم بالإدارة ، واختار مدينة الخرطوم عند ملتقى النيلين الأبيض والأزرق عاصمة

---

[1] د. عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، ص. 229 ـ 230 .

للسودان ، وشجع الزراعة ، وأدخل بعض الصناعات مثل صناعة السفن ، وعمل على إيقاف غارات الأحباش على حدود السودان والقوافل التجارية .[1]

3 ـ ***حملة اليونان 1824 :***

استنجد السلطان محمود الثاني ، بعد فشل العثمانيين في إخماد الثورة اليونانية بشبه جزيرة الموره ، بمحمد علي وعرض عليه باشوية كريت وتعيين ابنه إبراهيم على الموره مقابل المشاركة في استعادتها . وتمكن إبراهيم باشا من الاستيلاء على كريت والتوغل في اليونان ، حتى دخل أثينا عام 1826 . وهنا خشيت الدول الأوروبية من تطور الموقف ، وظهور قوة جديدة منافسة في المنطقة . لهذا وقعت إتفاقية روسية ـ بريطانية ـ فرنسية عام 1827 طالبت الأطراف المتحاربة في اليونان بالهدنة ، ومنح الاستقلال الذاتي لليونان . وقد رفض الأتراك والمصريون الهدنة ، فدخلت الأساطيل الأوروبية الصراع ووجهت ضربة شديدة للأسطولين العثماني والمصري في خليج نافارينو . ووقع في عام 1828 إتفاق بريطاني ـ مصري بسحب القوات المصرية من اليونان .[2]

---

[1] د. جلال يحي ، مصر الافريقية والأطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر ، القاهرة ، 1984 ، ص 30 ـ 38 .

[2] د. محمد كمال الدسوقي ، المصدر السابق ، ص. 141 ـ 149 .

4 ـ حملة الشام والصدام مع الدولة العثمانية .

كان محمد علي يطمع في ولاية سوريا منذ عام 1810 ، وحاول الحصول عليها إما بالاتفاق مع السلطان أو دفع أموال للعثمانيين نظير الاستيلاء عليها . وطلبها محمد علي أيضا في أثناء حملته ضد الوهابية بحجة الاستفادة منها في الإمدادات أثناء الحرب . ورغب محمد علي أن يمنحها السلطان له نظير خسائره في حرب اليونان . ونسب إلى إبراهيم باشا تصريحا ذكر فيه أن والده يرغب بتكوين دولة من الولايات العثمانية الناطقة بالعربية تحت حكمه . أما المبرر الذي أعلنه محمد علي عن سبب حملته على سوريا فتمثل في رفض والي عكا إعادة الفلاحين المصريين الهاربين من الخدمة العسكرية . [1]

تمكن إبراهيم باشا الذي قاد الحملة المصرية ضد سوريا عام 1831 ، من الاستيلاء على المدن السورية وإلحاق الهزيمة بالقوات العثمانية في عدة مواقع والتقدم نحو الأناضول . وهزم إبراهيم باشا جيشا عثمانيا قاده الصدر الأعظم قرب قونيه .

وهنا خشيت الدول الأوروبية من تفوق محمد علي وقضائه على الدولة العثمانية فسارعت إلى التدخل والضغط على الطرفين . وقد تم التوصل إلى صلح كوتاهيه عام 1832 ، وافق بموجبه السلطان التخلي عن

---

[1] د. مكي شبيكه ، المصدر السابق ، ص. 370 .

الشام وإقليم أدنه لمحمد علي طيلة حياته بشرط أن يبقى تابعا لـــه ويدفـع الجزية وينسحب من باقي الحجاز .

أصبح إبراهيم باشا حاكما على سوريا في السنوات الست التاليـــة وانشغل بتنظيم الأوضاع هناك ، إلا أنه جوبه بانتفاضات داخليـــة بسـبب إجراءاته الخاصة بالتجنيد والضرائب وتأزم الموقف مرة أخرى عام 1839 فتجددت الحرب العثمانية ــ المصرية . وتمكن إبراهيم باشا من هزيمة قوة عثمانية في نصيبين شمال شرقي حلب [1] وهنا عادت الـــدول الأوروبيـــة للتدخل ، فوقعت معاهدة لندن عام 1840 بين بريطانيا وروســيا والنمسـا وبروسيا من جهة ، والدولة العثمانية من جهة أخرى . ونصت المعـــاهدة على أن يحكم محمد علي وأبناؤه من بعده ولاية مصر ، ويحكم عكا طيلـة حياته ، على أن يكون تابعا للدولة العثمانية . وتعهدت الـــدول الأوروبيـــة بمساعدة السلطان في إخضاع محمد علي .

أجبر محمد علي ، بعد أن تدخلت الدول الأوروبية في الــنزاع ، على قبول اتفاقية عام 1841 المعدلة لمعاهدة لندن ، بأن تكون ولاية مصر وراثية له ولأولاده على شرط الخضوع الأسمى للدولة العثمانية ، وتنفيـذ القوانين العثمانية في مصر ، وتنفيذا للاتفاق ، انسحبت قوات محمد علـــي من سوريا . [2]

---

[1] د. عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، ص. 238 ــ 243 .

[2] د. محمد فؤاد شكري ، مصر والسودان ــ تاريخ وحدة وادي النيل السياسية فـــي القرن التاسع عشر 1820 ــ 1899 ، القاهرة ، 1963 ، ص. 15 ــ 17 .

وعلى الرغم من فشل محمد علي في تحقيق طموحاته بإقامة دولة كبرى في المنطقة ، فإنه ضمن على الأقل نجاحا في جعل مصر ولاية وراثية ، وبناء أساس للنهضة فيها ترك تأثيراته على البلاد في العقود التالية . ويعود السبب الأساسي لانتكاس محمد علي إلى الدول الأوروبية التي مدت يد العون للعثمانيين ، لا حبا فيهم ، وإنما بهدف الحفاظ على مصالحها واستغلالها للمنطقة من خلال الدولة العثمانية الضعيفة ، وخشيتها من قيام دولة قوية بزعامة محمد علي على أنقاض الدولة العثمانية تقف سدا منيعا بوجهها . ولا ريب أن صراع محمد علي مع الدولة العثمانية قد نبه قادتها إلى مدى تخلف دولتهم وعجزها عن مواجهة والي مصر ، فأدى هذا إلى إسراع السلاطين بتحقيق الإصلاحات المطلوبة مما ترك تأثيرات واضحة على مختلف ولاياتها ، ومنها الولايات العربية . وترافق هذا كله مع هجمة استعمارية جديدة استهدفت السيطرة على أجزاء من الوطن العربي .

الفصل الثامن

الغزو الاستعماري الأوروبي للوطن العربي

- الإستعمار الفرنسي للمغرب العربي : الجزائر ـ تونس المغرب الأقصى .
- الاحتلال البريطاني لمصر 1882 .
- فرض الحماية البريطانية على منطقة الخليج العربي .
- الاحتلال الإيطالي لليبيا 1911 .

الفصل الثامن

الغزو الاستعماري الأوربي للوطن العربي

الاستعمار الفرنسي

للمغرب العربي

- الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830

لم تكن الأطماع الفرنسية في الجزائر حديثة وإنما امتدت إلى سنوات عديدة سابقة . وذكر البعض أن مشروع احتلال الجزائر يعود إلى عهد نابليون ، الذي كان يطمح في غزو المغرب العربي بأجمعه وتحويل البحر المتوسط إلى بحيرة فرنسية . وكان للجزائر ديون على فرنسا من تصدير الحبوب إليها ، بل أنها أقرضتها الأموال أكثر من مرة لتأمين شراء الحبوب . ولعب التجار اليهود دورا خبيثا في تعميق الخلافات المالية بين الجزائر وفرنسا ، لا سيما أن فرنسا ماطلت في دفع الديون المستحقة للجزائر .

وأثناء مقابلة بين الداي حسين والقنصل الفرنسي ديفال عام 1827 ، ناقش الداي القنصل حول مسألة الديون فكان رد القنصل وقحا ، واعتبره الداي مهينا له ، فأشار له بالمنشة التي كانت بيده (وفي روايات أخرى ضربه) علامة على طرده من المجلس . واعتبرت فرنسا الحادث

إهانة لشرفها الوطني وأرسلت قوة بحرية إلى الجزائر تطالب الداي بالاعتذار للقنصل ، ورفع الأعلام الفرنسية فوق القلاع الجزائرية ومطالب أخرى . وقد رفض الداي الإنذار ، واستمر الحصار ثلاث سنوات .

كانت هناك أسباب أخرى دفعت فرنسا إلى احتلال الجزائر ، فخيرات البلاد وخصوبة أرضها تعود على فرنسا بفوائد اقتصادية كبيرة . وكان احتلال الجزائر يمثل حلا للمشاكل الداخلية التي عانى منها نظام الملك شارل العاشر الرجعي وتوجيها لأنظار الشعب الفرنسي نحو الخارج . وأراد الفرنسيون من احتلال الجزائر أن يكون نواة لبناء إمبراطورية فرنسية في شمال أفريقيا . ولم يهمل الفرنسيون الغطاء الديني بدعوى نشر المسيحية وتنصير الجزائريين . [1]

جهزت فرنسا حملة بحرية وبرية بقيادة بورمونت وزير الحربية وأنزلت قواتها على الساحل الجزائري في يونيو عام 1830 . وعلى الرغم من إهمال الداي تنظيم قواته ، إلا أن القوات الغازية وجدت مقاومة شديدة خلال الأيام التالية ، ولكنها استطاعت الوصول إلى مدينة الجزائر ودخولها بعد استسلام الداي ومغادرته إلى نابولي ثم الإسكندرية . وعاد الجنود الأتراك إلى تركيا ، وظل الشعب الجزائري وحده يواجه الغزاة .

واجهت فرنسا صعوبات كبيرة في مد سيطرتها داخل البلاد ، فبعد احتلال عنابه ووهران والبليدة ، اضطرت القوات الفرنسية بفعل المقاومة

---

[1] د. محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث ، ص. 147 ــ 161 .

الجزائرية إلى سحب قواتها من هذه المدن . ومثل تصدي القبائل المرحلة الأولى من المقاومة الجزائرية المنظمة ضد الفرنسيين ، حيث أحبطوا خططهم في التوسع داخل البلاد .

قاد بايات المقاطعات المرحلة الأخرى من المقاومة الجزائرية . وتمثل ذلك في باي تيطري مصطفى بومرزاق الذي وافق في البداية على التبعية لفرنسا ثم عاد مرة أخرى لمقاومة المحتلين ، وقام باي قسنطينه أحمد بدور مهم في المقاومة وتمكن من إلحاق الهزيمة بحملة فرنسية أرسلت لاحتلال المدينة عام 1836 ، ولكن نجحت حملة تالية باقتحام المدينة بعد قتال شديد ، واضطر الباي أحمد للانسحاب إلى جبل الأوراس وقيادة المقاومة من هناك حتى عام 1848 . حين حاصرته قوة فرنسية وأجبرته على الاستسلام .[1]

يعد تزعم الأمير عبد القادر الجزائري للمقاومة صفحة مضيئة في تاريخ الجزائر الحديث والكفاح ضد الغزو الفرنسي . فقد انتخب الأمير عبد القادر أواخر عام 1822 لتزعم المقاومة في مقاطعة وهران ، واتخذ من مدينة معسكر مقرا له ، ووحد القبائل لمجابهة القوات الفرنسية ، ثم انتقل بعدها إلى الجهاد ضد الفرنسيين . وبعد سلسلة من المعارك التي دخلها الأمير عبد القادر ، أدرك أنه بحاجة إلى هدنة لتنظيم شئونه الداخلية ،

---

[1] للتفصيل عن الاحتلال الفرنسي للجزائر والمقاومة الشعبية ضده حتى ظهور الأمير عبد القادر الجزائري ، راجع :
G.B Laurie , The French Conquest of Algeria , London , 1909 , pp 19- 86

فتوصل إلى معاهدة مع فرنسا عام 1834 نصت علــــى إيقــاف القتــال ، وإطلاق سراح الأسرى لدى الطرفين ، وحرية التجارة وانتقال الأفراد .

وجه الأمير عبد القادر اهتمامه إلى تنظيم شئون المناطق الخاضعة لسلطته بعد توقيع المعاهدة فقضى على التمردات الداخلية ، ووضع هيــاكل إدارية للمناطق التابعة له ، وبنى جيشا نظاميــا اهتــم بتدريبــه ، وأقــام الحصون ، وأنشأ مصانع لصهر المدافع وتصنيع الأسلحة والذخائر .

أدى توسيع الأمير لنفوذه وسيطرته على مناطق جديدة إلى تزايــد مخاوف الفرنسيين مما أفضى إلى تجدد القتال بين الطرفين عــام 1835 . لكن فشل الفرنسيين في القضاء على الأمير عبد القادر من جهة ، ورغبتهم في التفرغ لسحق باي قسطنطينه من جهة أخرى قد دفعهم للدخــول فــي مفاوضات جديدة مع عبد القادر الجزائري أسفرت عن توقيع معاهدة تافنــا عام 1837 ، اعترفت فرنسا بموجبها بسيادة الأمير على المناطق الخاضعة له ، وأقر الجزائري بالمقابل بالاحتلال الفرنسي لبعض مناطق الجزائــر . وتطرقت المعاهدة أيضا إلى حرية التجارة بين الطرفين ، والحرية الدينية ، وتبادل القناصل . [1]

لم تكن معاهدة تافنا سوى هدنة مؤقتة ، إذ أجبر التوسع الفرنســي في الأراضي الجزائرية الأمير على العودة للقتال مرة أخرى فــي أواخــر عام 1839 ، متبنيا أسلوب الهجمات الخاطفة . والتجــأ الفرنســيون إلــى

---

[1] د. أديب حرب ، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808 ـ 1847 ، ج1 ، الجزائر ، 1983 ، ص. 87 ـ 319 .

استخدام قوات كبيرة في التقدم داخل المناطق التي كان يسيطر عليها الأمير عبد القادر . ونتيجة للفارق الواضح في القوات والتسليح ، تمكنت القـــوات الفرنسية من احتلال المدن الهامة التي كانت بيـد الأمـير مثـل معسـكر وتلمسان . وأضطر الأمير عبد القادر إلى اللجوء للمغرب الأقصـى عـام 1843 تحت ضغط الهجوم الفرنسي المكثف . [1]

لم ينه إلتجاء الأمير عبد القادر إلى المغرب الأقصـى مـن شـنه للغارات على المراكز الفرنسية في الجزائر ، الأمر الذي أثـار السـلطات المحتلة التي وجهت سلسلة من الاحتجاجات إلى السلطان المغربي . وكـان الرد الدائم للسلطان أن الأمير عبد القادر في بلاد الريف التـي أصبحـت تحت سيطرته ، وبذلك فإنه لا يستطيع التأثير عليه . [2] وأصبـح وجـود الأمير في المغرب سببا مهما لتوتر العلاقات المغربية ـ الفرنسية إلى حـد اندلاع الحرب بينهما عام 1844 ، وتعهد المغرب في معاهدة الصلح ، التي وقعت بعد هزيمته أمام فرنسا ، بطرد الأمير عبد القادر . وتكثفـت بذلـك الضغوطات المغربية ، الأمر الذي أجبر عبد القادر على تسليم نفسه للقوات الفرنسية بالجزائر في أواخر عام 1847 . [3] وبذلك طويت صفحة مشرقة من الجهاد الجزائري في مراحله الأولى ضد الغزو الفرنسي .

---

[1] د. جلال يحي ، المغرب العربي الحديث ، ص. 458 ـ 464 .

[2] أمين سعيد ، الدولة العربية المتحدة ، ج2 ، القاهرة ، د.ت ، ص. 196 .

[3] David G. Gordon , The Passing of French Algeria. London , 1966 , p. 14

اعتقد الفرنسيون أن القضاء على الأمير عبد القادر سيتيح لهم تنفيذ مخططاتهم في الجزائر ، وتولى الجنرال بوجو هـــذه المهمـــة . وكـــانت الخطوة الأولى توطين الفرنسيين في الجزائر لاستغلال خيراتها ، فوزعـت عليهم الأراضي الخصبة في البلاد بعد مصادرتها من المواطنين . وحاولت فرنسا إدماج الجزائر بها ، حيث نص دستور عام 1848 الفرنسي علـى أن الجزائر جزء من فرنسا . لكن سياسة الإدماج فشلت في هذه المرحلة لعـدم تعاون الجزائريين .

استمرت فرنسا في محاولاتها لإذابة الجزائر فيها ، فاستحدثت عـام 1858 وزارة فرنسية جديدة هي وزارة الجزائر . ونص قانون صدر عـام 1865 على أن الجزائريين مسلمين "فرنسيين" ، وبالإمكان حصولهم علـى حقوق المواطن الفرنسي إذا رغبوا . ورفض الجزائريون تطبيـق قـانون الأحوال الشخصية الفرنسي عليهم ، وأصروا علـى الاحتفـاظ بالشـريعة الإسلامية . وصدر مرسوم في عام 1881 بإلحاق جميـع فـروع الإدارة الجزائرية ، بما فيها القضاء الشرعي ، بالوزارات المختصة في بـاريس . وتقرر في عام 1912 فرض الخدمة العسكرية الإلزامية على الجزائريين ، ونفذ هذا عام 1914 حينما سيق الكثير منهم إلى ساحات القتال أثناء الحرب العالمية الأولى .

لم يقف أبناء الشعب العربي في الجزائر مكتوفـي الأيـدي أمـام الاستعمار بعد القضاء على ثورة الأمير عبد القادر ، واسـتغلال خـيرات الجزائر . فقد اندلعت الثورة في الجنوب من منطقة الزعاطشه وقادها أحـد رجال الأمير عبد القادر . كما نشبت الثورة أيضـا فـي منطقـة القبـائل

وواجهتها فرنسا بأساليب شديدة القسوة لقمعها ولكن روح المقاومة استمرت في الأقاليم لسنوات أخرى ، وتمت مجابهة التوغل الفرنسي في المنـــاطق الصحراوية ، وتصدت القبائل له بمقاومة ضارية ، لكن التفوق الفرنســـي حسم المسألة لصالح الغزاة .

تعتبر ثورة المقراني عام 1871 من أهم حركات المقاومـــة التـــي أعقبت انهيار ثورة الجزائري . فقد أعلن محمد المقراني الثــورة ووجــد تأييدا شعبيا حيث انتشرت الثورة بسرعة . ولم يتمكـــن الفرنســيون مــن القضاء على الثورة إلا بعد الاستعانة بقواتهم من أوروبا .

واستمرت الثورة أكثر من تسعة أشهر ، أرسل الفرنسيون خلالـــها ما يزيد عن عشرين حملة عسكرية ، ولكن استخدام الفرنســيين للأسـلحة الحديثة وفقدان الوطنيين لها وخاصة المدفعية قـــد رجـــح كفـــة المـــيزان للمستعمرين . وسقط المقراني شهيدا فـــي إحـــدى المعـــارك . وارتكـــب الفرنسيون ، كعادتهم ، أعمالا وحشية بعد القضاء على الثورة ، وفرضـــوا غرامات كبيرة على السكان . [1]

ـ فرض الحماية على تونس 1881 .

مارست أوروبا في العقدين الأولين من القرن التاسع عشر ضغوطا واسعة على تونس . بحجة مكافحة القرصنة . وأرغمت تونس على إيقـــاف

[1] د. جلال يحي ، المغرب العربي الحديث والمعاصر ، ص. 593 ـ 661 .

الهجمات وفرض الضرائب على السفن الأوروبية ، الأمر الذي أثر بشكل كبير على البحرية التونسية . وهذه الرهبة من أوروبا جعلت تونس تقف موقف المعارضة من مساعدة الجزائر أثناء تعرضها للاحتلال الفرنسي عام 1830 ، بل تأييد الاجتياح الفرنسي للجزائر .

شهدت تونس ازدياد النفوذ الأجنبي مع تعاظم الحاجة إلى الأموال . ووجدت الدول الأوروبية الفرصة سانحة لإمداد تونس بالقروض ، فبدأت مسألة القروض الأجنبية . وبدأ هذا بالاقتراض من التجار الأوروبيين المقيمين في تونس ، بحيث وصلت عام 1862 إلى أكثر من 28 مليون فرنك ، ثم قرض آخر في العام التالي لتسوية القروض القديمة بمبلغ 35 مليون فرنك . وقد احتج الدائنون لدى حكوماتهم بسبب عجز الحكومة التونسية عن دفع الأقساط ، ووجدت الحكومات الأوروبية الفرصة سانحة لاستغلالها . واتفقت الدول الأوروبية ، بعد إعلان تونس عجزها عن تسديد الديون ، على إرسال بعثة لإصلاح المالية التونسية . [1]

جرت مساومات في أثناء عقد مؤتمر برلين 1878 ، الذي كان مكرسا للتوصل إلى اتفاق حول الحروب الروسية ـ العثمانية ، بين الدول الأوروبية بشأن تونس . فقد وافقت بريطانيا على إطلاق يد فرنسا في تونس ، مقابل اعتراف فرنسا بالسيادة البريطانية على جزيرة قبرص . ولم

---

[1] د. جلال يحي ، العالم العربي الحديث ، القاهرة ، 1984 ، ص. 232 ـ 241 .

تبد ألمانيا اعتراضا على هذا الاتفاق [1] ، أما الموقف الإيطالي فلم يكن يهم فرنسا كثيرا .

قامت فرنسا بالاستعدادات النهائية لغزو تونس في أواخر عام 1880 ، حيث أسرعت بمد خط السكة الحديد من الجزائر إلى تونس ، وتبنت الصحف حملة دعائية عن الأخطار التي تهدد الوجود الفرنسي في الجزائر . ومارست فرنسا ضغوطها على إيطاليا للكف عن معارضتها للتواجد الفرنسي في تونس . وادعت فرنسا أن هجمات القبائل التونسية على الحدود الجزائرية قد تكررت ، لهذا أعلمت الباي أن قواتها ستعبر الحدود وطلبت منه المعونة ، لكنه رفض وأجاب بأنه يستطيع بمفرده الحفاظ على النظام في بلاده . وعلى الرغم من ذلك ، عبرت فرنسا الحدود التونسية في إبريل 1881 ، وتوغلت داخل البلاد . واحتلت حملة ثانية بنزرت وزحفت نحو العاصمة .

بذل الباي جهوده لإيقاف الحملة الفرنسية عن طريق الاتصال بالدول الأوروبية الأخرى ، لكن تلك الدول رفضت التوسط بينه وبين فرنسا ، ولم تصله بالمقابل أية إمدادات من الدولة العثمانية . لذلك دفع اليأس بالباي إلى التوقيع على معاهدة باردو في الثاني عشر من مايو 1881 التي قدمها القائد العام الفرنسي وأمهله أربع ساعات للتوقيع عليها . [2]

---

[1] د. عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص. 438 .

[2] د. جلال يحي ، العالم العربي الحديث ، ص. 280 ــ 294 .

وافق الباي بموجب المعاهدة على قيام القوات الفرنسية باحتلال أية منطقة على الحدود أو الساحل لتوطيد الأمـــن ، وتنسـحب حـال تمكـن الحكومة الفرنسية من إقرار الأمن . وتعهدت فرنسا بالمحافظة على سلامة الباي وأسرته وبلاده من أي خطر . وحصرت فرنسا تمثيل تونـــس فـي الخارج بالدبلوماسيين الفرنسيين ، ومنعت الباي من عقد أية معـاهدة مـع الدول الأخرى دون موافقة فرنسا . [1] ووسعت معاهدة المرسى الموقعــة عام 1883 من الوجود الفرنسي في تونس .

على الرغم من إبقاء الفرنسيين النظام القديم المتمثـل فـي البـاي ووزرائه ، فإن السلطة الحقيقية تجمعت بأيدي المقيم العام الفرنسي والقـادة والمراقبين الفرنسيين . كما باشرت المحـاكم الأوروبيـة بـالفصل فـي المنازعات المتعلقة بالأوروبيين ، أو بينهم وبين المواطنيـن . وانتشـرت جمعيات الاستيطان في البلاد ، وزحـف المسـتوطنون نحـو الأراضـي الزراعية الخصبة ، ولم تسلـم حتـى أراضي الحبـــوس (الأوقـاف) منهم . [2]

بدأت المقاومة الشعبية ضد سلطات الاحتلال منذ وقـت مبكـر . وتزعم علي بن خليفة الثورة من صفاقس ، وامتدت لتشمل معظـم أنحـاء شرقي وجنوب تونس . والتجأت فرنسا إلى إرسال قوات ضخمة للتصـدي

---

[1] عبد الرحمن تشايجي ، المسألة التونسية والسياسة العثمانية 1881 ـ 1913 ، تعريب عبد الجليل التميمي ، تونس ، 1973 ، ص. 35 .

[2] د. عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص. 473 .

للثورة ، وقصف أسطولها البحري مدينتي قابس وصفاقس ، وبهذه الإمكانيات الضخمة تمكنت من إخماد الثورة بعد احتلال تونس العاصمة ومقر الثوار في القيروان .[1]

شهد العقد الأول من القرن العشرين تنامي النشاط السياسي الوطني في البلاد . وقد تجمع العديد من المثقفين الذين حملوا مبادئ قومية ودينية ، وأيدوا حركة الجامعة الإسلامية ، حول زعامة الشيخ عبد العزيز الثعالبي وجريدة الحاضرة . وظهر جيل جديد من المتأثرين بالثقافة الأوروبية أسسوا حزب تونس الفتاة ، وأصدروا جريدة التونسي.[2] وكان للحركة الوطنية التونسية دور مهم في الوقوف ضد الغزو الإيطالي لطرابلس الغرب ، وتحريض المواطنين على التصدي لانتهاك فرنسا حرمة مقبرة الجلاز الإسلامية .

حاول الفرنسيون مد خط للترام داخل مقبرة الجلاز الإسلامية عام 1911 . وأغضب هذا العمل المواطنين فتجمعوا للاحتجاج داخل المقبرة ، وتصدت لهم قوات الشرطة بإطلاق النار عليهم مما أدى إلى استشهاد وجرح الكثير من المواطنين . وأعقب هذا شن حملة واسعة من الاعتقالات

---

[1] أحمد القصاب ، تاريخ تونس المعاصر 1881 ـ 1956 ، تونس ، 1986 ، ص. 24 ـ 44 .

[2] د. جلال يحي ، تاريخ المغرب الكبير . الفترة المعاصرة وحركات التحرر والاستقلال ، ج4 ، بيروت ، 1981 ، ص. 39 ـ 43 .

في صفوف أفراد الحركة الوطنية ، ووضع تونس في جو الإرهاب استمر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى . [1]

ـ فرض الحماية على المغرب الأقصى (مراكش) 1912 .

مثل الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830 بداية النهاية لاستقلال المغرب الأقصى ، القطر الوحيد في شمال أفريقيا الذي لم يخضع للسيطرة العثمانية . لكن السلطان المغربي لم ينظر بجدية إلى مخاطر هذا الاحتلال على بلاده فأعلن حياده ، وسار خطوات أبعد من ذلك فسمح بنقل التموين للقوات الفرنسية في الجزائر عبر موانئ بلاده . لكن الموقف الشعبي من الاحتلال كان أكثر نضجا وتفهما للدوافع الفرنسية ومخاطرها على المنطقة بأكملها ، واعتبرها تمثل بداية لحروب صليبية جديدة . [2]

شهدت السنوات التالية توترا في العلاقات المغربية ـ الفرنسية لا سيما بعد لجوء الأمير عبد القادر الجزائري إلى المغرب . ووصلت الأمور إلى حد الحرب ، حيث اصطدم الطرفان في معركة ايسلي عام 1844 ،

---

[1] لمزيد من التفصيل عن دور الحركة الوطنية في هذه المرحلة ، وانتفاضة الجلاز عام 1911 ، أنظر المرجعين التاليين :

الطاهر عبد الله ، المصدر السابق ، ص. 25 ـ 53 . محمد الهادي الشريف ، ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس ، ط3 . تونس ، 1993 ، ص. 117 ـ 119 .

[2] شارل أندريه جوليان ، " التدخل المغربي في الجزائر غداة إحتلال العاصمة الجزائرية سنة 1830 " . ترجمة محمد البوزيدي ، " البحث العلمي " ، "مجلة" ، العدد 3 ، 1964 ، ص. 261 .

التي انتهت بهزيمة القوات المغربية وإجبار السلطان على توقيع اتفاقية طنجة ، حدد فيها عدد القوات المغربية على الحدود الجزائرية ، وتعهد السلطان بطرد الأمير عبد القادر من بلاده .[1]

تميزت مرحلة ما بعد إيسلي بتفاقم النفوذ الفرنسي ، وكانت الحجة الدائمة للتدخل في شئون البلاد هي الحركات القبلية المغربية عبر حدود الجزائر. وشجع التدخل الفرنسي الدول الأوروبية الأخرى على تعزيز نفوذها . ويتضح مدى النفوذ الأجنبي من خلال نظام الحماية القنصلية ، الذي منح بموجبه الآلاف من المغاربة حق الحماية ، وشكلوا بذلك جيشا من الجواسيس سخر لخدمة الدول الأوروبية.[2] ورغبة من السلطان الحسن الأول (1873 ـ 1894) في الحد من النفوذ الأجنبي ، دعا إلى عقد مؤتمر دولي بدأ أعماله في مدريد عام 1880 بحضور ثلاث عشرة دولة . وبدلا من إلغاء نظام الحماية القنصلية ، وهو الهدف الذي كان يسعى إليه المغرب ، فإن المؤتمر أقره . وحصلت جميع الدول المشتركة بالمؤتمر على حق الدولة الأكثر رعاية . ونالت فرنسا الشرعية من المؤتمر بشأن الامتيازات الواسعة التي حصلت عليها سابقا في المغرب .[3]

---

[1] C.V. Usborne , The Conquest of Morocco, London, 1936, pp. 42-44.

[2] R.B Cunningham Graham. Mogreb – El – Acksa , New York, 1930, p.54

[3] محمد خير فارس،المسألة المغربية 1900ـــ1912، ط2 ، بيروت، 1980 ، ص.76.

أسهم عهد السلطان عبد العزيز (1894 ــ 1908) في التعجيل بوقوع البلاد تحت السيطرة الفرنسية . فقد استلم عبد العزيز الحكم وعمره لم يتجاوز الأربعة عشر عاما ، وبذلك وقع تحت سيطرة ونفوذ مراكز القوى في البلاد ، وأثار الانشقاق وسط العائلة الحاكمة . وترك السلطان شؤون الحكم وصرف اهتمامه نحو توافه اللعب منفقا عليها مبالغ طائلة دفعها إلى المغامرين الأوروبيين الذين تجمعوا في المغرب للتقرب من السلطان وكسب الأموال . (1)

إن أبرز الظروف التي مهدت لفرض السيطرة الفرنسية على البلاد هي الحركات الداخلية ، والتي لم تكن فرنسا بعيدة عن قسم منها ، ويأتي في مقدمتها حركة الجيلاني الزرهوني في شمال شرقي المغرب . وامتدت هذه الحركة بين الأعوام 1902 ــ 1909 ، تمكن الجيلاني خلال هذه المدة من إحراز بعض الانتصارات ومحاصرة فاس نفسها . ومن المهم إظهار الآثار السلبية التي خلفتها الحركة ، وبالذات فيما يخص تعزيز النفوذ الفرنسي في البلاد . فقد وقع المغرب في شراك القروض الأجنبية نتيجة التكلفة الباهضة للحملات العسكرية ، حيث استدان مبلغ 87 مليون فرنك عامي 1903 ــ 1904 ، ووضع 60 % من إيرادات الجمارك تحت تصرف فرنسا ، بالإضافة إلى ضمانات مالية شديدة أخرى .

أما الحركة الداخلية الأخرى الرئيسية فهي حركة الشريف الريسوني في منطقة طنجه ، واختص الريسوني بعمليات الخطف ، خاصة

---

(1) Gavin Maxwell , Lords of the Atlas , London . 1969 , pp. 51 - 62

وسط الأجانب مما أثار الدول الأجنبية ضد بلاده وسهل من عمليات تدخلهم في الشؤون المغربية بحجة حماية المخطوفين . ومــن النتــائج الســريعة لنشاطه ، تأسيس قوة شرطة فرنسية في طنجه . [1] وبذلك أسهمت حركتي الجيلاني والريسوني في تعزيز النفوذ الفرنسي في المغرب .

من جهة أخرى ، دخلت فرنسا في مساومات مــع بعــض الــدول الأوروبية بشأن المغرب . ففي الفترة الممتدة بين 1900 ــ 1902 وقعــت فرنسا إتفاقين مع إيطاليا ، وافقت بموجبهما على إطلاق يــد إيطاليــا فــي طرابلس الغرب ، مقابــل اعتــراف إيطاليــا بحرية عمــل فرنســا فــي المغرب . [2] وشجع هذان الاتفاقان بريطانيا على الدخول في مفاوضــات مع فرنسا ، تراجعت فيها عن موقفها التقليدي السابق بإبعاد أية دولة أجنبية عن الانفراد بالنفوذ في المغرب خشية تهديد طرق المواصلات البريطانيــة عبر البحر المتوسط ، مقابل اعتراف فرنسا بالاحتلال البريطاني لمصــر . وتوصل الطرفان ، بعد مفاوضات معقدة ، الى الإتفاق الودي فــي ابريــل 1904 لتصفية المشاكل العالقة بين الدولتين . وتضمنت أهم بنود الاتفــاق بالنسبة للمغرب اطلاق يد فرنسا في تلك البلاد ، مقابل اعترافها بــالاحتلال

---

[1] لمزيد من التفصيل عن الحركات الداخلية في المغرب ، أنظر :

جمال هاشم الذويب، التطورات السياسية الداخلية في المغرب الأقصى 1894 ــ 1912، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت الى كلية الآداب،جامعة بغداد،1989،ص.72 ــ 97

[2] للإطلاع على نص الاتفاقين ، راجع :

J.C Hurewitz , The Middle East and North Africa in World Politics . A Documentary record , vol.1 1535 – 1914 , Second Edition , London , 1975. pp 478 – 482

البريطاني لمصر ، وتوفير الحرية التجارية لكلتا الدولتين في المغرب ونصت إحدى المواد السرية على منح أسبانيا منطقة الريف المغربية على ساحل البحر المتوسط . [1]

وفي عام 1905 حدثت أزمة طنجه ، أو ما سمي أزمة مراكش الأولى . ففي نهاية مارس من تلك السنة وصل الإمبراطور الألماني وليم الثاني إلى طنجه وأدلى بتصريح ذكر فيه أنه جاء لزيارة ملك وبلد حر ومستقل ، وأنه يأمل أن يبقى كذلك . [2] ونظرا لمنافسة ألمانيا الشديدة لفرنسا في المغرب ، فإن تصريحات الإمبراطور أثارت قلقا في فرنسا ودعي إلى عقد مؤتمر دولي جديد بهدف حل الخلافات والمشاكل الجديدة .

عقد المؤتمر في الجزيرة الخضراء جنوبي أسبانيا في يناير عام 1906 ، ووقع ميثاقه النهائي في إبريل من العام نفسه . وأقر الميثاق بسيادة السلطان واستقلال المغرب ، وسياسة الباب المفتوح للدولة كافة . وتضمن الميثاق أيضا فقرات خاصة بتنظيم قوات الشرطة في المغرب بإشراف ضباط فرنسيين وأسبان وتعيين مفتش عام سويسري ، ومراقبة عمليات تهريب الأسلحة ، وإنشاء مصرف الدولة بإشراف مصارف

---

[1] أنظر نص الاتفاق وبنوده السرية ، في :
J.C Hurewitz , Diplomacy in the Near and Middle East , vol.1 , New York, 1972 , pp. 263 – 265 .

[2] للتفصيل عن زيارة الإمبراطور الألماني لطنجه ، أنظر :
Sidney Bradshaw Fay , The Origins of the World War , vol.1,2 Ed. New York , 1956 , pp. 183 – 187 .

أوروبية ، والسماح للأجانب بتملك الأراضي في المغرب . [1] وهكذا كرست مقررات المؤتمر شرعيا وعمليا النفوذ الفرنسي في المغرب . وانتصرت فرنسا وحليفاتها على المنافسين لهم داخل المؤتمر .

تحركت فرنسا بسرعة بعد المؤتمر ، واستغلت حادث مقتل طبيب فرنسي في مراكش لتقوم باحتلال مدينة وجدة في الشمال الشرقي في مارس 1907 . وجاء حادث مقتل عدد من العمال الأوروبيين في مدينة الدار البيضاء فرصة لفرنسا لتحتل تلك المدينة ذات الموقع الاستراتيجي في اغسطس من العام نفسه . وادعت فرنسا أن احتلالها للمدينتين مؤقت ، لكن الحقيقة كانت بعيدة عن ذلك . فقد وضعت فرنسا باحتلالها لوجده في الشمال الشرقي والدار البيضاء في الغرب ، المغرب بين طرفي كماشة وانطلقت من المدينتين للتوسع في أجزاء المغرب الأخرى .

أثار الاحتلال الفرنسي لوجده والدار البيضاء ردود فعل شديدة لدى الشعب ضد العدوان الفرنسي ، وتخاذل السلطان عبد العزيز في رده . وأدى ذلك إلى قيام ثورة شعبية أطاحت بالسلطان عبد العزيز وجاءت بأخيه عبد الحفيظ إلى السلطة في أغسطس 1908 . ولم يتمكن السلطان الجديد من الوقوف أمام الأطماع الفرنسية ، ففي مايو من عام 1911 زحفت القوات الفرنسية نحو فاس وقمعت الانتفاضة الشعبية ضد السلطان عبد الحفيظ ، وشجع احتلال فاس الأسبان على احتلال ميناء العرائش ومدينة

---

[1] للإطلاع على نص الميثاق ، راجع :

Hurewitz , The Middle East , pp. 517 – 535

القصر الكبير . من جهة أخرى ، دفع احتلال فاس الألمان إلـــى إرسال طراد حربي إلى ميناء أغادير وحدوث أزمة أغادير ، أو ما سمي بأزمـــة مراكش الثانية . وسويت تلك الأزمة بتوقيع اتفاق نوفمبر 1911 ، الـــذي أقرت فرنسا بموجبه بالمصالح الاقتصادية الألمانية في المغرب ، وتنـازلت عن جزء من الكونغو الفرنسي لألمانيا نظير اعترافـــها بفــرض الحمايــة الفرنسية على المغرب .[1] لم يبق أمام فرنسا أية صعوبـــات داخليــة أو خارجية لغرض سيطرتها على المغرب . وهكذا وقعت معاهدة الحماية فــي الثلاثين من مارس 1912 . وفي أغســطس مــن العــام نفســه ، أجــبر الفرنسيون السلطان عبد الحفيظ على التنازل عن العرش وأرسل إلى فرنسا للإقامة فيها .[2]

---

[1] Edmund Burke ///, Prelude to Protectorate in Morocco 1860-1912, Chicago, 1976, pp. 92-178.

[2] عبد الرحمن بن زيدان ، الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة ، الرباط ، 1937 ، ص. 118 .

الاحتلال البريطاني
لمصر 1882

تميزت الفترة التي أعقبت وفاة محمد علي عام 1848 حتى الاحتلال البريطاني لمصر عام 1882 بزيادة التنافس الأوروبي للاستحواذ على مصر . فقد حاولت فرنسا ، التي أدركت الأهمية الإستراتيجية لمصر في أثناء احتلالها لها ، تعزيز نفوذها في تلك البلاد والتصدي للدول المنافسة لها . وحددت بريطانيا سياستها في مصر بمنع تكرار الغزو الفرنسي حتى تؤمن طريقها البحري إلى الهند .

وهكذا شهدت السنوات التالية صراعا بين الدولتين الأوروبيتين للسيطرة على مصر ، فتمكنت بريطانيا من الحصول على امتياز لمد سكة الحديد بين الإسكندرية والقاهرة ثم السويس ، والتي افتتحت عام 1858 . وسعت فرنسا من جانبها ، إلى تنفيذ مشروع شق قناة السويس ، حيث حصلت على الامتياز عام 1859 ، على الرغم من المعارضة البريطانية الشديدة للمشروع . وبدأ حفر القناة عام 1854 ، قبل تصديق السلطان العثماني على عقد الامتياز الثاني الذي منح شركة القناة امتيازات كبيرة على حساب المصالح الوطنية . وصادق السلطان أخيرا على الامتياز ، وانتهى العمل بالقناة عام 1869 وفتحت للملاحة الدولية . وجرى احتفال كبير بالمناسبة حضره العديد من ملوك أوروبا وأنفقت فيه مبالغ باهظة وصلت إلى حوالي المليون والنصف من الجنيهات ، الأمر الذي أسهم في

تفاقم الديون المصرية ، وأدى في النهاية إلى وقوع مصر تحت الاحتـــلال البريطاني . [1]

تورط الخديوي إسماعيل بديون باهظة في أثنـــاء فـــترة حكمـــه ، وصلت إلى أكثر من 90 مليون جنيه إسترليني ، وقاد هـــذا إلـــى إعـــلان إفلاس البلاد عام 1876 . ويعود جزء كبير من هذه المأساة إلى الإســراف الشديد للخديوي وبطانته الفاسدة . ونتيجة لفشل إسماعيل في تسديد الديــون ، فإنه بادر إلى بيع أسهم مصر في القناة بثمن بخس إلى بريطانيا لا يتعدى أربعة ملايين جنيه إسترليني . ووافق أيضا على إنشاء صندوق الدين مـــن أعضاء أجانب ، وتعيين مفتشين بريطانيين وفرنسيين للإشراف على ماليـــة مصر . ومع ذلك كله ، صدر فرمان عام 1879 ، بتدخل مـــن الأجـــانب عزل بموجبه الخديوي إسماعيل وعين توفيق بدلا عنه . [2]

أدت مجمل الظروف التي عانت منها مصر من تحكم الأجانب فـــي البلاد ، وتفاقم الديون ، واستبداد الحكام وإسرافهم ، علاوة على النهضـــة الفكرية التي أرسى دعائمها عدد من المفكرين مثل محمد عبـــده وجمـــال الدين الأفغاني ، أدى كل ذلك إلى تصاعد النقمة في أوساط الشعب وإيمانـــه بضرورة التغيير . وكانت النقمة أكثر وضوحـــا فـــي صفـــوف الضبـــاط الوطنيين ، فبالإضافة إلى العوامل سابقة الذكر تعرض الضباط المصرييـــن

---

[1] د. عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ مصر الحديث ، ص. 306 ـ 332 .

[2] Milad – A – EL – Magrahi , British Policy toward Egypt 1875 – 1885 , Tripoli , 1989 , pp 33 – 57

إلى الاضطهاد وعدم المساواة مع أقرانهم الأتراك والشراكسة في الرتب والمرتبات والمناصب . وبرز من بين صفوف الضباط الوطنيين أحمد عرابي ، الذي تزعم مجموعة من الضباط وفرض عددا من المطالب على الخديوي عام 1881 ، فبدأ ما أطلق عليه الثورة العرابية .

تمكن أحمد عرابي من إجبار الخديوي على إقالة وزير الحربية وتعيين أحد العناصر الوطنية وهو محمود سامي البارودي محله ، وإقالة الحكومة وتعيين وزراء أكثر وطنية منها ، وإقامة مجلس نيابي في البلاد ، ومساواة الضباط على اختلاف أصولهم . ومن الطبيعي أن تثير مثل هذه الخطوات بريطانيا ذات المصالح الاستعمارية في مصر ، لذلك صممت على قمع التحرك الثوري الجديد في البلاد . وشكل الثوار ، نتيجة للتدخل السافر في شؤون البلاد ، حكومة جديدة برئاسة محمود سامي البارودي ، أحتل فيها أحمد عرابي وزارة الحربية . ووجدت الوزارة نفسها أمام أولوية تحصين البلاد والاستعداد لصد التدخل الأوروبي الوشيك لضرب الثورة . [1]

أرسلت فرنسا وبريطانيا أسطولهما إلى الإسكندرية ، واستغلت الدولتان الأوروبيتان حادث شجار وقع بين مصري ومالطي تطور إلى مذبحة للتدخل الفعلي في فرض السيطرة العسكرية . وتتابعت الأحداث بسرعة ، فقد وجه البريطانيون إنذارا بالكف عن إقامة التحصينات في الإسكندرية ، وقصفوا المدينة بعد رفض الإنذار . وتقدمت القوات

---

[1] د. جلال يحي ، مصر الإفريقية ، ص. 275 — 295 .

البريطانية نحو القاهرة عقب احتلالها للإسكندرية ، وكسبت معركة التل الكبير التي قادها عرابي ، ودخلت العاصمة المصرية في سبتمبر 1882 برفقة الخديوي توفيق . وأحيل عرابي ورفاقه إلى محكمة عسكرية حكمت بنفيهم إلى جزيرة سيلان بعد تجريدهم من رتبهم ومصادرة ممتلكاتهم ، وظل عرابي بالمنفى حتى سمح له بالعودة عام 1901 .

ادعت بريطانيا أن احتلالها لمصر مؤقت حتى زوال الظروف التي أدت إليه ، لذلك لم تعلن عن ضم البلاد أو فرض الحماية عليها . ولكن بريطانيا ، من الناحية الفعلية ، أخضعت مصر لسيطرتها وأوجدت نظاما إداريا هيمنت عليه من خلال المعتمد والمستشارين . وتولى اللورد كرومر ، أحد أبرز بناة الإمبراطورية الاستعمارية ، مهام المعتمد في مصر حتى عام 1907 . [1]

حاول الخديوي عباس حلمي الثاني (1892 ــ 1914) الذي أعقب الخديوي توفيق ، الوقوف بوجه النفوذ البريطاني . وكانت أول المسائل التي أثارت الخلاف بين الجانبين إقالة الخديوي لوزارة مصطفى فهمي باشا الموالية للبريطانيين . ووجدت هذه الخطوة تأييدا شعبيا ، لكنها أدت من جهة أخرى إلى زيادة أعداد جيش الاحتلال في البلاد . وحاول عباس حلمي الثاني أيضا التقرب إلى روسيا وفرنسا والدولة العثمانية ، وعلق آماله بالذات على السلطان العثماني للتخلص من الاحتلال البريطاني فزار

---

[1] د. عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ العرب ، ص. 329 ــ 359 .

استانبول ولكنه فشل في تحقيق أي هدف سياسي من رحلته . [1]

من جهة أخرى ، أمر البريطانيون الخديوي في عام 1896 بتسيير حملة لإعادة احتلال السودان بعد أن تمكنت الثورة المهدية من تحرير البلاد . وقاد الحملة اللورد كتشنر بصفته سردار الجيش المصري . ودخلت الحملة مدينة الخرطوم أواخر عام 1898 بعد معارك أبدى فيها السودانيون بسالة منقطعة النظير لأكثر من عامين . وتم عام 1899 توقيع ما سمي باتفاقية الحكم الثنائي البريطاني ـ المصري للسودان . ولكن الحكم الفعلي تركز بأيدي البريطانيين ، حيث عين القائد البريطاني للجيش المصري حاكما عاما للسودان ، وكذلك الحال بالنسبة لكبار معاونيه . [2]

أنهى احتلال السودان الآمال بأي انسحاب بريطاني من مصر . وجاء توقيع الاتفاق الودي البريطاني ـ الفرنسي عام 1904 ، الذي اعترفت فرنسا بموجبه بإطلاق يد بريطانيا في مصر ، ليثبت الاحتلال البريطاني . وقد انعكست هذه التطورات على تفاقم الهيمنة الاستعمارية في مصر من جهة ، وتطور الحركة الوطنية المعادية للاحتلال من جهة أخرى . وتمثل حادثة دنشواي عام 1906 مثلا حيا على تنامي كره الأهالي للمستعمرين . فخلال قيام مجموعة من الضباط البريطانيين بصيد الحمام في قرية دنشواي أصابوا امرأة بطلقاتهم واشتبكوا نتيجة لذلك مع الأهالي ،

---

[1] محمد سيد كيلاني ، عباس حلمي الثاني أو عصر التغلغل البريطاني في مصر 1892 ـ 1914 ، القاهرة ، 1991 ، ص. 31 ـ 51 .

[2] د. مكي شبيكه ، المصدر السابق ، ص. 753 ـ 775 .

الأمر الذي أدى إلى جرح أحد الضباط وموته فيما بعد . واتخذت سلطات الاحتلال إجراءات انتقامية قاسية بحق فلاحي القرية ، إذ عقدت محكمة صورية في المنطقة برئاسة بطرس غالي استغرقت ثلاثين دقيقة حكمت على أربعة من الأهالي بالإعدام شنقا وعدد آخر بالجلد والسجن لمدد مختلفة . ونفذت أحكام الإعدام بصورة استفزازية في القرية نفسها . [1]

أثارت مأساة دنشواي ردود فعل واسعة ، وكان لها أثر كبير في نمو الحركة الوطنية المعادية للاحتلال بزعامة مصطفى كامل . وكان مصطفى كامل من أبرز المؤمنين بالوطنية واستقلال مصر ، لكنه آمن من جهة أخرى بالرابطة العثمانية بهدف التخلص من الاحتلال البريطاني . وأصدر عام 1900 جريدة اللواء لتكون منبرا لأفكاره ، حيث اهتمت الجريدة ، بالإضافة للنواحي السياسية ، بالأمور الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والأدبية . وشن مصطفى كامل حملة شديدة ضد المحتلين بعد حادثة دنشواي ، وتمكن من استقطاب شرائح المجتمع المختلفة ضد تلك الجريمة . وتوجت جهود مصطفى كامل بتأسيس الحزب الوطني عام 1907 ، لكن الأجل لم يمهله فتوفى عام 1908 ليخلفه محمد فريد في زعامة الحزب . [2]

على أية حال ، أدى السخط الذي أعقب حادث دنشواي إلى استبدال المعتمد العام كرومر عام 1907 ، الأمر الذي أثار ارتياحا عاما في البلاد

---

[1] محمد سيد كيلاني ، المصدر السابق ، ص. 99 ــ 111 .

[2] د. عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ مصر الحديث ، ص. 428 ــ 440 .

أما رئيس محكمة دنشواي بطرس غالي فقد كوفئ من قبـــل المســتعمرين بتعيينه رئيسا للوزراء ، إلا أنه لقي مصرعه على يد إبراهيم الورداني عام 1910 عقابا على أحكامه الظالمة وموالاته للمحتلين .

استمر الاحتلال البريطاني لمصر حتى إعلان الحـــرب العالميــة الأولى عام 1914 ، حينها فرضت بريطانيا حمايتها رسميا على مصـــر ، وخلعت الخديوي عباس حلمي الثـــاني بحجــة موالاتــه للعثمـــانيين [1] ، وسخرت موارد وسكان مصر لخدمة مجهودها الحربي طيلة فترة الحرب .

[1] محمد سيد كيلاني ، المصدر السابق ، ص. 125 ــ 185 .

فرض الحماية البريطانية

على منطقة الخليج العربـي

شكلت منطقة الخليج العربي أهمية إستراتيجية كبـيرة لبريطانيـا ارتبطت أساسا بالوجود البريطاني في الهند . لذلك سعت بريطانيا إلى مـد نفوذها نحو تلك المنطقة ، وكان لا بد لها من ضرب القوى المحلية المؤثرة هناك . وركز البريطانيون بالذات على القواسم لكونهم من أقوى الاتحادات القبلية في المنطقة ، وتعدى نفوذهم ونشاطهم الخليج العربي إلـى البحـر العربي والبحر الأحمر وساحل الهند الغربي .

تمكنت حملة بريطانية في عام 1809 من الاستيلاء علـى معقـل القواسم ، رأس الخيمة ، بعد مقاومة ضارية أبداهـا العـرب . وارتكـب البريطانيون أعمالا وحشية في المدينة ، فدمروا المنازل بعد نهبها وأحرقوا السفن . لكن البريطانيين اضطروا للانسحاب بعد سماعهم أخبارا عن تقـدم قوات عربية نحو المدينة . وفشل البريطانيون من قهر القواسم والقضـاء على نشاطهم البحري ، على الرغم من مهاجمتهم لمدن عربية أخرى .

صمم البريطانيون على إنهاء دور القواسم ، لذلك جهزوا حملـة كبرى اشتبكت مع القواسم أواخر عام 1819 . وأدي تباين الإمكانيات بيـن الطرفين إلى حسم الصراع لصالح البريطـانيين ، فـأحتلوا رأس الخيمـة وعددا آخر من المدن الساحلية . وأجبر البريطانيون شيوخ الساحل علـى توقيع ما عرف بالمعاهدة العامة أوائل عام 1820 فرضـت قيـودا علـى

السيادة العربية وفي عام 1887 ـ 1888 وقع شيوخ أبـــي ظبـــي ورأس الخيمة وعجمان وأم القيوين والشارقة ودبي تعهدا بعدم إقامة علاقات مـــع دول أخرى ، باستثناء بريطانيا ، أو قبول ممثلين للدول الأخرى إلا بموافقة بريطانيا . ووقعت اتفاقية جديدة عام 1891 أضيف إليها شـــروط أخـــرى منها عدم التنازل عن أي جزء من أراضي المنطقة للأجانب بدون موافقـــة بريطانيا . وبذلك ضمن البريطانيون السيطرة على الساحل .

من جهة أخرى ، حاولت الدولة العثمانية الوقوف بوجـــه التغلغـــل البريطاني في الخليج العربي ، وتولى الوالي العثماني في العراق مدحـــت باشا تنفيذ هذه السياسة . ففي هذا الصدد ، أرسل مدحت باشا ، بالتعاون مع بعض العشائر العربية ، حملة تمكنت من الاستيلاء على منطقة الأحســـاء عام 1871 مما أثار قلق بريطانيا الشديد على مصالحـــها فـــي الخليـــج ، فحاولت تحجيم الحملة في الأحساء ، واتصلت مع شيوخ الخليج لمنعهم من التحالف مع العثمانيين .

مثلت الكويت نقطة المنافسة الأخرى العثمانية ـ البريطانية فكـــان شيوخ الكويت يعترفون بالسيادة العثمانية علـــى بلدهـــم ، وغـــم تمتعـــهم بالاستقلال الذاتي . وبعد المحاولات التي بذلها بعض الـــولاة العثمـــانيين لتحجيم ذلك الاستقلال ، أخذ البريطانيون بالتدخل وتشجيع حكام الكويـــت على التصدي للعثمانيين . ولكن استطاع مدحت باشا أخـــذ موافقـــة شـــيخ الكويت على اعتبار مشيخته قضاء عثمانيا تابعا لولاية البصرة .

ازداد الاهتمام البريطاني بالكويت بعد حصول الألمان على امتياز مد خط سكة حديد برلين ـ بغداد ، ومحاولتهم إيصال الخط إلى الكويت على ساحل الخليج العربي ، مما مثل في نظرهم تهديدا للسيطرة البريطانية في الخليج والهند . لهذا تحركت بريطانيا على شيخ الكويت مبارك الصباح ووقعت معه اتفاقية أوائل عام 1899 ، تعهد فيها بعدم التنازل عن أي جزء من أراضيه للدول الأجنبية ، وأصبح بذلك تحت الحماية البريطانية . [1] وبهذا ضمنت السيطرة على معظم ساحل الخليج العربي وخليج عمان .

---

[1] د. مصطفى النجار وآخرون ، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ، ص. 87 ـ 140 .

الاحتلال الإيطالي

لليبيا 1911

سبق وأن تطرقنا في فصل سابق إلى استعادة العثمانيين لسيطرتهم المباشرة على ولاية طرابلس الغرب ، وقضائهم على حكم الأسرة القرمانلية عام 1835 . لكن الحكم العثماني الثاني للولاية كان قلقا ، بحيث تعاقب اثنان وثلاثون واليا في البلاد خلال السنوات 1835 ــ 1911 . ولم يسيطر العثمانيون في السنة الأولى من عودتهم سوى على مدينة طرابلس ، وأستلزم الأمر حوالي ربع قرن (1835 ــ 1858) لبسط نفوذهم على الساحل والمناطق الداخلية . وكانت الحركات المحلية أبرز ما ميز تلك السنوات ، لا سيما المقاومة التي أبداها غومه زعيم قبيلة المحاميد ، والشيخ عبد الجليل زعيم أولاد سليمان . وكان من الطبيعي أن تشهد البلاد في ظل هذه الأوضاع تدهورا عاما في النواحي الاقتصادية والصحية . [1]

أدى فرض الحماية الفرنسية على تونس عام 1881 إلى ردود فعل واسعة في ولاية طرابلس ، وساد الاعتقاد بأن فرنسا تنوي ضم طرابلس أيضا . وعلى الرغم من التجاء العثمانيين إلى تعزيز نفوذهم في الولاية للتصدي لأي خطر ممكن ، فإنهم استكانوا أخيرا وتوصلوا إلى اتفاق مع السلطات الفرنسية في تونس عام 1910 لتخطيط الحدود . [2] وكان هذا

---

[1] روسي ، المصدر السابق ، ص. 422 ــ 441 .

[2] فيرو ، المصدر السابق ، ص. 738 ــ 747 .

مؤشرا خطيرا لسكان الولاية عن إمكانية تخلي العثمانيين عنهم على غرار ما فعلوه تجاه تونس .

من جهة أخرى ، شهد العهد العثماني الثاني تنامي النفوذ الأوروبي في ولاية طرابلس الغرب ، والصراع بين القوى الاستعمارية للسيطرة عليها . ومن أبرز تلك الدول إيطاليا ، التي تحركت نحو السيطرة بمحاور متعددة : الاقتصادي عن طريق بنك دي روما ، والعسكري الذي مثلته البعثات الاستكشافية ، والثقافي والسياسي بإنشاء المدارس والبعثات التبشيرية ونشاط الجاليات الإيطالية .

أسس مصرف روما في العاصمة الإيطالية عام 1880 ، وفتح له فيما بعد فروعا في عدد من المدن الليبية مثل طرابلس وبنغازي ودرنه . وتولى هذا المصرف تنفيذ ما سمي بسياسة التغلغل السلمي ، مدعوما من الحكومة الإيطالية والفاتيكان . وعهد إلى المصرف ، بالإضافة إلى النواحي المالية وتمويل المشاريع الصناعية وشراء الأراضي ، بتولي الخدمات البريدية في طرابلس وبنغازي . وفي الإطار ذاته ، قام المصرف بتمويل نفقات البعثات الإستكشافية الإيطالية في ليبيا . وعلى الرغم من الخسائر الباهضة التي تحملها المصرف نتيجة تغطيته للنشاطات الاستعمارية ، فإن الحكومة الإيطالية حثته على الاستمرار لخدمة مصالحها في ليبيا .

قام حقي باشا ، سفير الدولة العثمانية في روما ، بدور كبير في تحريض حكومته على السماح للإيطاليين بشراء الأراضي في ولاية

طرابلس باسم مدير مصرف روما ، لكن الوالي العثماني في طرابلس رجب باشا قاوم ذلك فعزل من منصبه . ووفر خلفه فوزي باشا الذي تولى منصب الوالي عام 1909 ، جوا من حرية العمل أكثر ملائمة للإيطاليين . [1]

أما الوجه الثاني من محاولات التغلغل الإيطالي فتمثل في البعثات الاستكشافية . وكانت أهداف هذه البعثات التعرف على اقتصاديات الولاية ، والنقاط الدفاعية والإستراتيجية فيها تمهيدا لغزوها . واتخذت هذه البعثات غطاء علميا للتمويه على أهدافها الحقيقية . وقد تمكنت من جمع معلومات هامة عن معالم البلاد ، وعادات وتقاليد السكان ، وإمكانات الولاية العسكرية . [2]

سخر الإيطاليون أيضا من البعثات التبشيرية والمدارس في التمهيد لاحتلال البلاد . وتمثل النشاط التبشيري الذي ابتدأ عام 1889 بإنشاء مدرستين ابتدائيتين تابعتين للكنيسة . وتوسع نشاط البعثات التبشيرية ليشمل بناء الكنائس والملاجئ وأعمال غلفت بالطابع الإنساني . [3] ومثلت

---

[1] فرانشيسكو ماكيري ، الحرب الليبية 1911 ــ 1912 ، ترجمة وهبي البوري ، طرابلس ، 1978 ، ص. 19 ــ 24 .

[2] مصطفى حامد رحومه ، المقاومة الليبية التركية ضد الغزو الإيطالي ، دمشق ، 1988 ، ص. 69 ــ 70 .

[3] محمد رجب الزايدي ، الغزو الإيطالي لليبيا مقدماته وغاياته ، بنغازي ، 1974 ، ص. 29 ــ 30 .

المدارس الإيطالية من جانبها إحدى أدوات التنشئة الاستعمارية ، ومحاولة لغرس الثقافة واللغة الإيطالية في أوساط العرب ، وتشويه الثقافة العربية الإسلامية . [1]

على أية حال ، لم يكن " التغلغل السلمي " على ما يبدو فعالا في البلاد بسبب مقاومة السكان ، وتصدي بعض الولاة للمحاولات الإيطالية . لذلك اتجه الإيطاليون نحو القوة المسلحة لتحقيق هدفهم بعد أن ضمنوا موافقة الدول الكبرى ، أو على الأقل سكوت البعض منها .

ابتدأ الإيطاليون استعداداتهم لاحتلال البلاد بإرسال مذكرتين إلى الدولة العثمانية عبروا فيهما عن قلقهم مما أدعوه بالهيجان في طرابلس الذي يهدد سلامة مواطنيهم . وطالبوا بإيقاف إرسال الأسلحة للولاية . وقدموا إنذار للدولة العثمانية أواخر سبتمبر 1911 ذكروا فيه أنهم سيقومون باحتلال طرابلس وبرقة ، ودعوا العثمانيين إلى عدم وضع أية عقبات أمامهم . وكان الرد العثماني متخاذلا ، وتضمن عدم الاعتراض على النشاط الاقتصادي لإيطاليا في الولاية ، واستعداد الباب العالي لتسوية الأمور المعلقة بشكل سلمي .

بدأ الإنزال الإيطالي على الشواطئ الليبية في شهر أكتوبر 1911 ، وتمت السيطرة على المدن الساحلية الكبرى ولم تتمكن الحاميات العثمانية قليلة العدد وضعيفة الإمكانات من الصمود أمام الأسطول

[1] مفتاح السيد الشريف ، الاستعمار الايطالي لليبيا ، طرابلس ، 1970 ، ص. 36 .

والأسلحة الإيطالية الحديثة . ومع ذلك ، تصدى رجال الحاميات والمواطنون للقوات الغازية ، لا سيما في طبرق وبنغازي ، وانطلقت بعدها المقاومة الكبرى للغزو . [1] ويمكن تقسيم المقاومة حتى الحرب العالمية الأولى على مرحلتين متميزتين : شهدت الأولى منهما مقاومة عثمانية — ليبية مشتركة ، أما الثانية فانفرد فيها أبناء الشعب العربي الليبي بعد انسحاب القوات العثمانية أثر معاهدة لوزان عام 1912 .

ابتدأت المرحلة الأولى من المقاومة حال نزول القوات الغازية في عموم الولاية . وأدت الوحدات القتالية التي شكلها السكان المحليون ، وقاد بعضها الضباط الأتراك دورا أساسيا في المقاومة . وكانت أولى معارك المقاومة في طرابلس قد جرت في الثالث والعشرين من شهر أكتوبر عام 1911 ، وهي معركة الهاني ، أعقبتها سلسلة من المعارك التي أجبرت الإيطاليين على اتخاذ موقف الدفاع . وهكذا فإنه حتى أوائل عام 1912 لم يتمكن الإيطاليون من تحقيق أهدافهم ببسط سيطرتهم الكاملة على الولاية ، أو التوغل داخل البلاد .

أدى فشل إيطاليا في السيطرة على ليبيا ، وانهيار أحلامها بتحقيق نصر سهل وسريع ، وازدياد المعارضة الداخلية للحرب بسبب تكاليفها الباهظة وتأثر مكانتها الدولية وسمعتها بسبب الخسائر الكبيرة التي تكبدتها أمام شعب شبه أعزل ، أدى ذلك كله إلى توجهها بنقل الحرب خارج

---

[1] نيكولاي . أ . بروشين ، تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام 1969 ، ترجمة د. عماد حاتم ، طرابلس ، 1988 ، ص. 104 — 107 .

الولاية . وكانت إيطاليا على معرفة تامة بهشاشة موقف العثمانيين لذلك ابتدأت بمهاجمة سواحل بحر إيجه ، واحتلت جزر الدوديكانيز هناك ، وتعرضت تحصينات الدردنيل وميناء بيروت للقصف . وأجبرت هذه الأحداث الدولة العثمانية على الدخول في مفاوضات مع إيطاليا ، أدت إلى توقيع معاهدة أوشي لوزان في أكتوبر عام 1912 . [1]

تعهد الطرفان بموجب المعاهدة بإيقاف إطلاق النار ، وانسحاب الجيش والإدارة العثمانية من ولاية طرابلس ، مقابل إخلاء الإيطاليين لجزر بحر إيجة . ونصت المعاهدة أيضا على تبادل أسرى الحرب ، وإصدار عفو عام عن السكان . وتضمن فرمان أصدره السلطان ترك سكان طرابلس الغرب أحرارا في تقرير شئونهم . وأصدر ملك إيطاليا ، استنادا لهذا الفرمان ومعاهدة لوزان ، مرسوما بإعلان تبعية الولاية للحكم الإيطالي . [2] وبتوقيع المعاهدة انتهت المرحلة الأولى من الجهاد المشترك

---

[1] للتفصيل عن المرحلة الأولى من الجهاد ، أنظر المصدرين التاليين :

غيورغ فون غريفنتيس ، تاريخ الحرب الليبية الإيطالية ، ترجمة د. عماد الدين غانم ، طرابلس ، 1986 ، وليام . هـ . ببيهلر ، تاريخ الحرب التركية الإيطالية 29 سبتمبر 1911 ــ 18 أكتوبر 1912 ، ترجمة د. عبد القادر مصطفى المحيشي ود. عبد المولى صالح الحرير ، طرابلس ، 1990 .

[2] أنظر نص هذه الوثائق ، في :

" تاريخ القوات المسلحة التركية ــ الدور العثماني ، الحرب العثمانية ــ الإيطالية ، 1911 ــ 1912 " ، ترجمة محمد الأسطى والدكتور علي اعزازي ، طرابلس 1988 ، ص. 565 ــ 571 .

وانتقلت المقاومة إلى مرحلة جديدة وقع عبء القيام بها على عاتق العرب الليبيين وحدهم ، بعد تخلي العثمانيين عنهم .

عقد مؤتمر العزيزية أثر وصول خبر توقيع المعاهدة ، واختلفت فيه الآراء بشأن الخطوة القادمة . وقرر أنصار المقاومة الاستمرار وأعلنوا استقلال الولاية وتشكيل حكومة برئاسة سليمان الباروني . وخاطب الباروني زعماء القبائل طالبا منهم مواصلة الجهاد ، كما أرسل وفودا إلى الدول الأوروبية طالبا فيها الاعتراف بحكومته . [1] ودخل الباروني في مفاوضات مع السلطات الإيطالية لم تسفر عن أية نتيجة ايجابية . لذلك قامت القوات الإيطالية بهجوم على منطقة الجبل الغربي وتمكنت من احتلاله ، وتلا ذلك ضم فزان لمنطقة الاحتلال خلال عامي 1913 — 1914 . [2]

شهدت المنطقة الشرقية من البلاد مقاومة أكثر ضراوة ضد المحتلين ، لا سيما في منطقة الجبل الأخضر ، شارك فيها متطوعون مثل الضابط عزيز علي المصري ، الذي تولى القيادة العسكرية بعد انسحاب أنور باشا قائد القوات العثمانية . وتمكن أحمد الشريف ، الذي قاد صفوف المجاهدين في المنطقة من جمع الصفوف والتصدي للقوات الإيطالية . وعلى الرغم من تقدم القوات الإيطالية واحتلالها عددا من المواقع ، إلا أنها واجهت هزيمة شديدة في معركة سيدي كريم القرباع بمنطقة درنة ،

---

[1] مصطفى حامد رحومه ، المصدر السابق ، ص. 336 — 337 .

[2] غريفنتيس ، المصدر السابق ، ص. 380 — 381 .

وفشلت خططها بتحقيق الاتصال مع القوات الأخرى في غربي البلاد وأوقفت محاولات الزحف الإيطالي . [1] ولغاية قيام الحرب العالمية الأولى لم يتمكن الإيطاليون من التوغل في المناطق الداخلية شرقي البلاد ، واقتصر نفوذهم على المدن . وتميزت هذه المنطقة أيضا باستمرار نفوذ العثمانيين فيها ، على العكس مما كان عليه الحال في المنطقة الغربية . [2]

تحولت ليبيا أثناء الحرب العالمية الأولى إلى ساحة للمؤامرات والصراع بين الدول المتحاربة . وحاول العثمانيون والألمان كسب المجاهدين وتسخيرهم للقتال ضد البريطانيين في مصر . واستعان العثمانيون لهذا الغرض بسليمان الباروني الذي تمكن من تحقيق انتصارات بارزة وطرد القوات الإيطالية من مناطق واسعة في الغرب . ووقف أحمد الشريف مع العثمانيين وخاض القتال ضد القوات البريطانية في مصر . ولكن تمكن البريطانيون والإيطاليون من شق وحدة المقاومة بالاتفاق مع إدريس السنوسي ، الذي تمكن في نهاية الحرب من إزاحة أحمد السنوسي عن رئاسة الطريقة السنوسية . [3]

---

[1] أنظر تفاصيل المعركة ، في :

خليفة محمد التليسي ، معجم معارك الجهاد في ليبيا ، 1911 ــ 1931 ، طرابلس ، 1983 ، ص. 321 ــ 322 .

[2] بحوث ودراسات في التاريخ الليبي 1911 ــ 1943، ج2، طرابلس1984 ، ص 118ــ 123 .

[3] بروشين ، تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر ، ص. 137 ــ 161 .

وهكذا ، فإن الاحتلال الغربي لعدد من الولايات العربية التي كانت خاضعة للحكم العثماني قبل الحرب العالمية الأولى ، وضعف إمكانيات الدولة العثمانية في التصدي ، قد أدى إلى إدراكها للحاجة إلى القيام بالإصلاحات في مختلف مؤسساتها لتدارك ضعفها . وأسهم هذا الأمر بدوره في نمو الوعي القومي العربي ، وهو الطابع الذي ميز الولايات العربية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

الفصل التاسع

الوطن العربي أواخر العهد العثماني

- الإصلاحات العثمانية وتأثيرها على الوطن العربي .

- العـــرب في مواجهة سياسة التتريك : الاتحاد والترقـــي وسياســـة التتريك ، المفكرون والجمعيات العربية السرية والعلنية .

- الوطن العربي خلال الحرب العالمية الأولى .

الفصل التاسع

الوطن العربي أواخر العهد العثماني

الإصلاحات العثمانية وتأثيرها على الوطن العربي

قام السلاطين العثمانيون بالإصلاح تحت ضغط الهزائم العسكرية التي منيت بها دولتهم ، وعلى هذا الأساس فإن إصلاحاتهم تركزت بالدرجة الأولى على الجيش ، وهدفوا من وراء ذلك تثبيت سلطتهم وتعزيز مصالحهم . وكان أول السلاطين المصلحين سليم الثالث (1789–1807) الذي نفذ عدة إصلاحات في المجال العسكري ، وأسس مدارس عسكرية ، وأرسل البعثات إلى أوروبا . وقد أدت تلك الإصلاحات إلى إثارة نقمة الإنكشارية وعلماء الدين عليه ، وتمكنوا في عام 1807 من الإطاحة بحكمه .

بدأت المرحلة التالية من الإصلاحات مع عهد السلطان محمود الثاني (1808–1839) ، قضى خلالها على الإنكشارية عام 1826 ، وألغى الإقطاعات العسكرية ، وأعاد إنشاء الجيش الجديد ، وأرسل بعثات إلى أوروبا ، وأسس العديد من المدارس المتخصصة ، فأصبح التعليم ركيزة أساسية في الإصلاح . وتابع السلطان عبد المجيد (1839–1861)

الإصلاح ، فاصدر في 3 نوفمبر 1839 خط شريف كولخانه ، ثم تعززت الإصلاحات الواردة في كولخانه بإصدار خط آخر هو خط همايون في فبراير 1856 .

وبلغ الإصلاح ذروته بإعلان الدستور عام 1876 في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1876ـ1909) . واقترنت هذه الإصلاحات بأسماء وزراء بارزين مثل : رشيد باشا عالي باشا ، فؤاد باشا ومدحت باشا . وفي الواقع أن تلك الإصلاحات جاءت من الأعلى لدعم سلطة الطبقة الحاكمة ، وامتصاص النقمة المحلية من جهة ، ولإرضاء الدول الكبرى من ناحية أخرى . [1]

وأيا كان الهدف الجوهري للإصلاحات ، فإنها تركت مؤثرات عميقة على الوطن العربي . فقد أثرت التنظيمات الخيرية في العراق ، وإن بدت الإصلاحات غريبة على المجتمع من خلال تطبيق القوانين الجديدة فيما يتصل بالخدمة العسكرية والضرائب ونظام " المختارين " . وبعد ثلاث سنوات من إعلان التنظيمات الخيرية بدأ العمل بالحجر الصحي ، وجوازات السفر ، وتأسست المدارس الرشدية . وقد أثارت قراءة مرسوم خط شريف كولخانه في بغداد عام 1839 المخاوف من سلطة الدولة على

---

[1] عن الإصلاح في الدولة العثمانية يمكن الإفادة بصورة تفصيلية من المصدرين التاليين :

Stanford . J. Shaw and Ezel Kural Shaw , History of the Ottoman Empire and Modern Turkey , 2 vols, Cambridge Universty Press , 1976 – 1977 , Roderic . H.
Davison , Reform in the Ottoman Empire 1856 – 1876, New york , 1973.

المجتمع الذي ازداد نفرة وابتعادا عن التسلط الـــذي فرضتـــه المركزيـــة العثمانية .

وعندما عين مدحت باشا واليا على العراق عام 1869 ازداد تـــأثر العراق بالحركة الإصلاحية في الدولة العثمانية ، فقد بـــذل مدحـــت باشـــا طوال حكمه القصير الذي لم يتجاوز ثلاثة أعوام جهودا حثيثة فـــي ســـبيل تحديث العراق وإصلاح أوضاعه ، وأبرز إنجازاته في هذا المجال إصـــدار نظام الطابو ، وإصلاح النظام العسكري ، وتشكيل شركة الإدارة العثمانيـــة النهرية ، وإنشاء المدارس الحديثة ، وتأسيس مطبعة حكومية ، وإصـــــدار أول جريدة باسم "الزوراء" ، وكذلك نظم الري ، وأسس المحاكم والبلديـــات وما إلى ذلك من الإصلاحات الأخرى . لذلك لا غرو إذ اعتبر مدحت باشا رائد الإصلاحية العثمانية في العراق الحديث .[1]

أما في الشام ، فشهدت البلاد إصلاحات مبكرة أثنـــاء خضوعـــها لحكم محمد علي ، لا سيما في مجال التعليم ، حيث طبق برنـــامج واســـع للتعليم الابتدائي على غرار نظام التعليم المصري . كما أجريت إصلاحـــات إدارية واقتصادية .[2] وبعد عودة الشام إلى الحكـــم العثمـــاني ، تـــأثرت بالإصلاحات والتنظيمات في الحقل القانوني قبل التعليمي . وكانت أولـــــى

---

[1] د. سيار الجميل ، المصدر السابق ، ص. 358 ـ 368 .

[2] د. عبد العزيز محمد عوض ، " العلاقات العربية التركية في بلاد الشام 1876 ـ 1914 " ، في كتاب : العلاقات العربية التركية ، تحرير د. عقيل البربار ، ج2 ، طرابلس ، 1988 ، ص 387 ـ 388 .

المدارس الجديدة هي الرشدية في حلب عام 1861 ، ثم طبق قانون المعارف في الربع الأخير للقرن التاسع عشر ، وانشئت مدارس حكومية حديثة في سوريا ، وأخضعت للإشراف الحكومي . وأكمل بعض خريجي المدارس الثانوية دراستهم العليا في استنبول ، وأصبحوا فيما بعد أعضاء نشيطين في الحركة العربية . وكذلك طبق قانون الولايات العثماني الجديد في سوريا عام 1865 . [1]

وفي تونس تمثل الاتجاه نفسه للإصلاح ، وحاول خير الدين باشا الذي أصبح رئيسا للوزراء عام 1873أن ينفذ سياسة الإصلاحات التي دعا إليها في كتابه " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك " . فقد تطرق خير الدين في كتابه المذكور الذي نشره بتونس 1867 إلى أهمية التنظيمات العثمانية ، ودحض المقولة السائدة بأنها مخالفة للشرع والإسلام . وكان الرجل مؤمنا بالخلافة العثمانية ، وأن الإصلاح لا بد أن يتم في إطار عثماني . [2]

المهم أن خير الدين تمكن خلال مدة أربع سنوات من توليه السلطة من أن ينظم المالية ، ومشاكل الأوقاف ، وأمور القضاء ، كما نظم التعليم في جامع الزيتونة ، وأنشأ الكلية الصادقية لتدريس العلوم التقليدية والحديثة . ومما ساعده على ذلك انتعاش الاقتصاد التونسي ، وانشغال

---

[1] د. عبد العزيز الدوري ، التكوين التاريخي للأمة العربية ، ط2 ، القاهرة ، 1985 ، ص. 134 ، 140 .

[2] د. سيار الجميل ، المصدر السابق ، ص. 393 .

فرنسا بمشاكلها الداخلية إثر هزيمتها أمام ألمانيا عام 1870 . لكن الدول الأوروبية لم ترض بمحاولة خير الدين تطبيق المحاكم المختلطة ، ومعارضته لسيطرة رؤوس الأموال الأجنبية في البلاد ، لذلك حرضت الباي ضده ، فاضطر للاستقالة عام 1877 . [1]

وتركت حركة الإصلاح العثماني أثرها أيضا على ولاية طرابلس الغرب . ففي عام 1867 عين علي رضا باشا واليا عليها ، وكان حريصا على الأخذ بأسباب التقدم في شتى الميادين ، وبعثت منجزاته الحياة في طرابلس ، إذ افتتح العديد من الطرق والمعابر داخل المدينة وخارجها ، وأنشأ خدمات البريد ، ومد خطوط البرق ، وحفر الآبار إضافة إلى الخدمات الأخرى . [2]

أما في نجد والحجاز فلم تجر فيها إصلاحات واسعة ، وذلك لأن الحجاز كان اسميا تحت النفوذ العثماني ، وبقي الإقليم وتوابعه بيد أشراف مكة الذين انشغلوا بالأوضاع التي استجدت في نجد على يد الوهابيين ، والمشكلات السياسية المحلية التي أحدثها قيام الدولة السعودية وتوسعها على حساب أقاليم الجزيرة العربية . فضلا عن ذلك فإن إصلاحات العثمانيين وتنظيماتهم المدنية والعسكرية تعارضت جملا وتفصيلا مع مصالح الأشراف الخاصة في مكة . وعلى العكس من ذلك نجح العثمانيون

---

[1] د. عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص. 438 .

[2] محمد ناجي ومحمد نوري ، طرابلس الغرب ، ترجمة أكمل الدين محمد احسان ، طرابلس ، 1973 ، ص. 199 .

في إعادة حكمهم المباشر لليمن عام 1872 ، وحرصوا على إدخال العديد من الإصلاحات الحديثة ، لكنهم اصطدموا دوما بالثورات والعناصر الرجعية التي اتهمت المصلحين بالمروق عن الدين . وعلى الرغم من ذلك خلد التاريخ لبعض الولاة والموظفين العثمانيين في اليمن أعمالا رصينة ، وإن كان أولئك قلة على غرار من أتى من الولاة والموظفين المصلحين في بقية الولايات العربية الأخرى في المشرق العربي . [1]

---

[1] د. سيار الجميل ، المصدر السابق ، ص. 395 ــ 398 .

العرب في مواجهة سياسة التتريك

ــ الاتحاد والترقي وسياسة التتريك .

قامت جمعية الاتحاد والترقي عام 1908 بانقلاب ضد حكم السلطان عبد الحميد الثاني ، وأجبرت الجمعية السلطان على إعادة العمل بدستور وبرلمان (مجلس المبعوثان) عام 1876 ، ثم سرعان ما خلعت السلطان عن العرش عام 1909 . وقد رفعت الجمعية شعارات (حرية ــ عدالة ــ مساواة) ، ووعدت أن لا تفرق بين سكان الإمبراطورية العثمانية في الحقوق والواجبات . لكن الجمعية سرعان ما أخذت تتجه نحو الاستبداد وتمارس سياسة " طورانية " . "1"

وقد انقسمت آراء زعماء الجمعية على ثلاثة اتجاهات رئيسة : سعى الأول إلى التتريك تحت العلم العثماني ، وهذه هي السياسة الطورانية ، ورأى الثاني أن انفصال القوميات الأخرى أمر ضروري ، وخاصة العرب على أساس أن تتريكهم ليس بالأمر الهين ، وفي بقائهم ضرر على الشعب التركي الأقل عددا ، واتجه الثالث نحو تأييد الالتفاف حول العصبية العثمانية ، وعدم الضرب على أوتار العصبية القومية ، لأن هذا يحرك الشعوب الأخرى فينهار بذلك صرح الإمبراطورية .

"1" نسبة الى جبل طوران في آسيا الوسطى ، الذي يعتقد الاتحاديون أنه الموطن الأصلي للأتراك .

وبوجه عام كان التعصب موجودا وقويا عند الاتجاهات الثلاثة . لكن الاختلاف الوحيد فيما بينها هو في تعاملها مع الظروف التي كانت تمر بها الإمبراطورية . وبما أن تفوق العنصر التركي مسألة قائمة في بنية الدولة وفلسفتها ، فإن هذا الأمر جعل دعاة الطورانية ينتصرون في النهاية على الاتجاهات الأخرى .

وقد اعتقد معظم أعضاء الاتحاد والترقي أن سياسة التتريك ستصهر بقية عناصر الإمبراطورية العثمانية في بوتقة واحدة . ومن أجل تنفيذ سياستهم أنشأ الاتحاديون جمعية أسموها " ترك أوجاغي " أي " العائلة التركية " وجعلوا غايتها تتريك العناصر غير التركية في الإمبراطورية . وقد ترافق ذلك مع حملة واسعة النطاق لتعبئة الأتراك ، خاصة الشباب منهم ، لخدمة هذه السياسة . وقام الاتحاديون أيضا بإبدال أسماء الأتراك من الأسماء العربية إلى الأسماء التركية القديمة التي كان أجدادهم يحملونها مثل جنكيز وهولاكو وتيمور ... الخ .

وهكذا يتبين بأن سياسة التتريك التي أتبعتها جمعية الاتحاد والترقي كانت سياسة عنصرية متعصبة سعت إلى بناء مجتمع جديد على أساس التفوق العنصري والعصبية القومية للأتراك ، وليس على أساس المساواة التي روجت لها أثر انقلاب 1908 . وكان من الطبيعي جدا أن يترتب على مثل هذه السياسة ممارسة العنف والتدمير وإرتكاب المجازر الدموية بحق القوميات الأخرى غير التركية التي خضعت للحكم العثماني ، لا سيما العرب الذين أظهر الاتحاديون احتقارا شديدا لهم . ففي الوقت الذي كانت فيه قوميات أخرى خاضعة للحكم العثماني كالروم والأرمن والبلغار تتمتع

بامتيازات تسمح لهم بإنشاء مدارس خاصة والتدريس فيها بلغاتهم القومية ، لم يكن للعرب أية امتيازات متشابهة ، وكانوا مضطرين لتلقي العلوم باللغة التركية في المدارس الرسمية . لذلك ليس من المستغرب أن تؤدي هذه السياسة إلى قيام أربع ثورات عربية عام 1910 فقط في اليمن وعسير وجبل الدروز والكرك .

وعموما فإن العرب شعروا بخيبة أمل مريرة حينما اكتشفوا بعد عودة الدستور أن الاتحاديين يسيرون وفق ميولهم التركية ، وليس على أساس سياسة اللامركزية التي كان العرب يتوقعونها ، ومنذ ذلك الوقت أخذ الكثير منهم يعلنون زوال رابطة الخلافة ، وأن القضية أصبحت قضية أتراك وعرب لا غير . [1]

ـ المفكرون والجمعيات العربية السرية والعلنية .

نتج عن اتصال العرب بالغرب أن تعرفوا على كثير من الحركات السياسية والمفاهيم التاريخية وأنظمة الحكم الغربية . وأعجب العرب بالثورة الفرنسية وبمبادئها في الحرية والإخاء والمساواة ، فظهرت لأول

---

[1] ثمة تفصيلات عن سياسة الاتحاد والترقي ، في :

جهاد صالح ، الطورانية التركية بين الاصولية والفاشية ، ط1 ، بيروت ، 1987 ، ص. 21 ـ 35 ، د. عبد العزيز الدوري ، المصدر السابق ، ص. 189 ـ 194 .

مرة فكرة " المواطنة " و " الوطن " و " حقوق المواطن " . وكان من أوائل الذين تناولوا ذلك رفاعة الطهطاوي في كتابه " المرشد الأمين " [1] .

وقد ولد رفاعة الطهطاوي (1801 – 1873) في السنة التي جلت فيها الحملة الفرنسية عن مصر ، وبدأ حياته العلمية تلميذا في الجامع الأزهر ، ثم ما لبث أن أرسل في بعثة تعليمية إلى باريس عام 1826 ومكث فيها خمس سنوات تركت تأثيرها البالغ في فكره ، وقرأ لمشاهير كتاب العصر مثل فولتير وروسو ومونتسكيو . وعند عودته لمصر عام 1834 ترك نتاجا فكريا وأدبيا غزيرا ، وامتازت كتاباته بالدعوة للوطنية التي رأى أنها الرابطة التي تشد النظام الاجتماعي إلى بعضه . وامتدح الطهطاوي العرب وأشاد بدورهم التاريخي ، فهو يقول : " أن العرب أكثر الأمم شجاعة ومروءة وشهامة ولسانهم أتم الألسنة بيانا وتمييزا للمعاني ... " . [2]

وبعد جيل من الطهطاوي بشر بطرس البستاني بحب الوطن ، وكشفت كتاباته عن حماسه للإحياء الأدبي وللوطنية ، ودعا للتنوير من خلال المدارس والمكتبات . وتمسك البستاني بالشرعية العثمانية ، وأبرز فكرة ارتباط الجماعة الوطنية بالعربية ، لأن العربية لغة وثقافة قاعدة مشتركة لأبناء الوطن . وتحدث أحمد فارس الشدياق (1804 ــ 1887)

---

[1] د. سيار الجميل ، المصدر السابق ، ص. 437 ــ 438 .

[2] د. عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص. 484 ــ 487 .

عن الوطنية ورأى أن الوطني الحق هو من يجتهد في نفع وطنه ويعمل مع مواطنيه ويشعر بشعورهم .

وأكد الشدياق على اللغة العربية ، ورفض سيادة اللغة التركية على حساب العربية . وأكد ناصيف اليازجي على ضرورة تعلم العربية ، فيما تغنى ابنه إبراهيم اليازجي بأمجاد العرب ، وأشار إلى تفوقهم في العلوم ورأى أن العرب تأخروا عندما سيطر عليهم الأجانب وحين أهملوا العلوم ، وشدد على أن لا سبيل للعرب لاستعادة مجدهم إلا بعكس ذلك .[1]

وبغض النظر عن أصله غير العربي ، فان جمال الدين الأفغاني (1839 ـ 1897) غالبا ما يشار إليه كأحد أبرز العناصر المؤثرة في تطور الفكر الإصلاحي الإسلامي عموما ، والعربي على وجه التحديد . فقد طالب الأفغاني بتوحيد العالم الإسلامي في ظل خليفة يتمتع بسلطة قوية ، وطالب الشعوب الإسلامية بأن ترتقي إلى مصاف الأمم الحرة والمتطورة عن طريق العلم ومواءمة الدين مع متطلبات العصر . وبلغ الشعور القومي مداه لدى عبد الرحمن الكواكبي (1849 ـ 1902) ، الذي يعد فكره حلقة الوصل بين دعاة الإصلاح الديني وأصحاب الاتجاه القومي العربي . وقد دعا الكواكبي ، على غرار مفكرين آخرين ، إلى إقامة الخلافة ، لكنه اشترط أن يكون الخليفة عربيا لا تركيا . وخلف لنا الكواكبي كتابين مشهورين هما : طبائع الاستبداد ، وأم القرى . وأشار إلى أن الجزيرة العربية هي قلب العالم الإسلامي ، لذلك يتوجب نقل مركز

---

[1] د. عبد العزيز الدوري ، المصدر السابق ، ص. 150 .

الثقل في هذا العالم من استانبول (مقر الخلافة العثمانية) إليها . وجعل الكواكبي العروبة والإخلاص للوطن مقياس الولاء بين أفراد الأمة .[1]

وسار الزهراوي في خط مماثل ، لكنه كان أكثر وضوحا في اتجاهه القومي ، فقد هاجم الاستبداد ونقد فكرة الجامعة الإسلامية سياسيا ، ونادى بفكرة الوطن ، وعرف مفهوم الأمة القومية ، وأكد دور العرب في التاريخ وتطلعهم إلى مستقبل أفضل .

وفي السنين الأخيرة لحكم السلطان عبد الحميد الثاني ظهرت كتابات لنجيب عازوري ، أهمهما كتابه " يقظة الأمة العربية " ، الذي عنى فيه بالتعريف باليقظة العربية ، ونبه إلى خطر الصهيونية ، وركز فيه هجومه على الحكم التركي ووصفه بأنه حكم ظالم ، ودعا إلى خلافة عربية .[2]

أما بالنسبة للجمعيات العربية العلنية والسرية ، فإن سياسة الاتحاديين العنصرية والتعسفية قد دفعت بعض القياديين العرب الذين كانوا في عاصمة الدولة العثمانية إلى تشكيلها . ففي نهاية عام 1909 أسس عبد الكريم الخليل جمعية " القحطانية " في استانبول ، بعد حل الجمعيات العلنية . والجمعية القحطانية أول جمعية سرية عربية ضمت عسكريين ومدنيين . وكان هدف الجمعية أن تتألف الدولة العثمانية من جزأين

---

[1] د. عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص. 493 ـ 527 .

[2] د. عبد العزيز الدوري ، المصدر السابق ، ص. 174 ـ 231 .

مستقلين أحدهما عربي والآخر تركي ، وتكون الدولة عربية ـ تركية في إطار عثماني ، على غرار إمبراطورية النمسا ـ المجر . واستهدفت الجمعية من وراء ذلك التأكيد على الشخصية العربية في نطاق الدولة العثمانية ، ذلك لأن الحركة الاستقلالية العربية لم تكن قد تبلورت بعد . ثم انحلت الجمعية بعد عدة سنوات نتيجة لعوامل عدة ، منها حدوث انشقاقات في داخلها بسبب تعدد المواقف ووجهات النظر السياسية .

ولم تخرج جمعية (العربية الفتاة) عن مضمون القحطانية . حيث تأسست العربية الفتاة في باريس عام 1909 من قبل بعض الطلبة العرب من أبناء العائلات التجارية والعقارية . وكان هدف الجمعية السياسي نيل الاستقلال الذاتي داخل إطار الدولة العثمانية . وإلى جانب هذا الهدف سعت الجمعية أيضا إلى رفع شأن الأمة العربية اجتماعيا وتربويا ، إلى المستوى الذي بلغته الدول الغربية ، لكن اشترطت أن يحصل هذا دون مساس بوحدة الإمبراطورية العثمانية أو القضاء عليها . وواصلت الجمعية نشاطها خلال سنوات الحرب العالمية الأولى ، وساندت الحكم الفيصلي في سوريا . [1]

أما حزب اللامركزية الإدارية العثماني فقد تأسس في القاهرة أواخر عام 1912 من قبل بعض السوريين المقيمين في مصر ، وتولى رفيق العظم رئاسة الحزب . وقد اتفقت أهداف هذا الحزب مع دعوة حزب

---

[1] كامل محمود خله ، (القحطانية) و (الفتاة) و (العهد) والدولة العثمانية حتى عام 1914 ، في كتاب : العلاقات العربية التركية ، تحرير د. عقيل البربار ، ج 2 ، طرابلس ، 1988 ، ص. 369 ـ 371 .

الحرية والائتلاف العثماني ، الذي تولى الحكم في الدولة العثمانية في يوليو 1912 . وهدف الحزب إلى إقامة إدارة لا مركزية في السلطنة العثمانيــة ، والمطالبة بتشكيل حكومة على قواعد اللامركزية الإداريــة فــي ولايــات الدولة العثمانية . [1]

---

[1] للتفصيل عن الحزب وأهدافه ، أنظر : المصدر نفسه ، ص. 374 ـــ 377 .

الوطن العربي خلال الحرب

العالمية الأولى

دخلت القضية العربية في مرحلة جديدة بانضمام الدولة العثمانية إلى جانب جبهة دول الوسط (ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر) في الحرب العالمية الأولى . وكان طبيعيا أن يفكر العرب في مصير بلادهم أمام الأخطار المنتظرة ، وأن الأرض العربية ستكون مسرحا لحرب دامية ومريرة[1] ، فضلا عن أن قضيتهم القومية لا بد لها من أن تدخل في تلك السياسة الأوروبية ، خصوصا وأن موقف العرب من الحرب أصبح موضع اهتمام مباشر من قبل الحلفاء وبالتحديد بريطانيا ، فسيطرة الدولة العثمانية على بلاد الشام والعراق كان يعني تهديد المصالح البريطانية في قناة السويس ورأس الخليج العربي . أما من الناحية السياسية فكان إعلان الجهاد الذي يدعو إليه الخليفة ـ السلطان كافيا لأن يحيل الحجاز إلى آتون تندلع فيه نار الدعاية لتهيج البلاد العربية ، بل تتعداها إلى الشعوب الإسلامية غير العربية الخاضعة لحكم الحلفاء .[2] لذلك كله سارعت بريطانيا إلى إجراء اتصالات مكثفة مع القادة العرب في نجد والحجاز واليمن ، وتمكنت من استمالة الشريف حسين شريف مكة بعد سلسلة من المراسلات المعروفة باسم مراسلات حسين ـ مكماهون عام 1915 ـ

---

[1] جهاد صالح ، المصدر السابق ، ص. 50 .

[2] جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الأسد واحسان عباس ، ط6 ، بيروت ، 1980 ، ص. 214 ـ 215 .

1916 ، والتي قدم فيها العرب شروطهم في تشكيل دولة عربيـــة مســتقلة مقابل اشتراكهم في الحرب إلى جانب دول الحلفاء .[1]

إزاء ذلك كله سعت الدولة العثمانية للحيلولة دون تمرد العـــرب ، ولإبقائهم تحت السيطرة العثمانية خصوصا بعد إعلان بريطانيـــا فـرض حمايتها رسميا على مصر وخلع الخديوي عباس الثاني الموالي للعثمـــانيين وإلغاء السيادة العثمانية على مصر . وكجزء من محاولاتها لإحكام قبضتها على العرب عينت حكومة الاتحاديين وزير البحرية جمال باشـــا (الـذي عرف بالسفاح فيما بعد) قائدا للجيش العثماني الرابع في دمشق ، ومنحته صلاحيـات استثنائية وعرفية بهدف القضاء على أية تحركـــات عربيـة قومية . فلم يتوان جمال باشا في تنفيذ حكم الإعدام بعـــدد مـــن القوميين العرب في يوليو1915 ومايو من العام التالي . وقد عجلت تلـك السياسـة العنصرية والقمعية بإعلان الثورة العربية عـــام 1916[2] ، التـي كـان تأثيرها على الفكرة القومية ذا أهمية كبيرة ، فقد أثارت مشـــاعر العـرب جميعا ، الذين أعلنوا منذ المنشور الأول للثورة في السادس والعشرين مـن يونيو إنفصالهم عن الدولة العثمانية واستقلال البلاد العربية .[3] لكن فـي الوقت الذي كان فيه العرب يتعهدون بالوقوف إلى جانب قوات الحلفـــاء ، كانت بريطانيا وفرنسا تتفاوضان سرا لتقسيم الوطن العربي . وجرت أكـبر

---

[1] أنظر خلفيات تلك المراسلات وتطوراتها في : المصدر نفسه ، ص. 251 ــ 275.

[2] جهاد صالح . المصدر السابق ، ص. 51 ــ 52 .

[3] د. عبد العزيز الدوري ، المصدر السابق ، ص. 266 .

مؤامرة استعمارية عرفها تاريخ العرب الحديث ، وذلك بعقد اتفاقية سايكس بيكو بين بريطانيا وفرنسا في إبريل 1916 . [1]

وقع المشرق العربي نتيجة الحرب العالمية الأولى تحت الاستعمار الأوروبي ، وتساوى في ذلك مع المغرب العربي أما العثمانيون فإنهم خسروا بنتيجة الحرب كافة الأقطار العربية ، وفي الواقع جميع إمبراطوريتهم خارج الأناضول باستثناء استانبول . وهكذا عادت الدولة العثمانية بعد ستمائة سنة من التوسع ثم الانحسار ، إلى المنطقة التي خرجت منها في إمارة عثمان في الأناضول . [2] ودخل العرب من جانبهم في مواجهة تاريخية جديدة ضد المستعمرين الأوروبيين .

---

[1] للتفصيل عن الاتفاقية ، أنظر :

جورج انطونيوس ، المصدر السابق ، ص. 348 ـ 356 .

[2] د. عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص. 558 ـ 559 .